الدكتور عمرو خليفة النامي

ظاهرة النفاق

في إطار الموازين الإسلامية



1886

مكتبة مسقط
MBAS
مسقط - القاهرة


مكتبة مسقط
M B S

ظاهرة النفاق

في إطار الموازين الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م



مكتبة مسقط - مسقط

ص.ب ٩٩ الحمرية الرمز البريدي ١٣١

مسقط - سلطنة عمان

هاتف: ٢٤٨٣٥٥٣٣ - ٠٠٩٦٨

فاكس: ٢٤٥٣٧٠٩٢ - ٠٠٩٦٨

نقال: ٩٩٣٤٠٨٣٥ - ٠٠٩٦٨

Email: mctbooks@hotmail.com

مكتبة مسقط - القاهرة

هاتف: ٠٠٢١١٥٠١٠٤٩٤

Email: mctbookscairo@hotmail.com

ملك جمعية
إحياء التراث الإسلامي
لخدمة التراث

ظاهرة النفاق

في إطار الموازين الإسلامية

تأليف
الدكتور عمرو خليفة النامي

راجعه وقدم له
سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

مكتبة مسقط
مسقط - القاهرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

[المنافقون: ٤]

* * *

«أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَعَها: إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

حديث شريف

كلمة بقلم المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير البريّة أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

(ظاهرة النِّفاق في إطار الموازين الإسلامية) كتابٌ ألَّفَهُ الدكتور الليبيّ عمرو خليفة النامي في السجن المركزي بطرابلس، عندما اعتُقِلَ للمرة الثانية مع أستاذه الشيخ علي يحيى مُعَمَّر (ت ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠ م) وعَدَدٍ من المثقَّفين، إِثْرَ ما عُرِفَ بـ: (خطاب زوارة) في ١٢ ربيع الأول ١٣٩٣ هـ، ١٥ إبريل ١٩٧٣ م)، ودامت هذه المِحْنةُ قرابةَ سنتين. ومن العجيب أن يَلْقَى النامي في السجن مكتبةً واسعة تَضُمُّ الكتب المُصَادَرة التي يُمْنَعُ تداوُلُها!! وقد ساعدتْهُ في إعداد كتابه هذا. وهو كتابٌ يُصَنَّفُ ضِمْنَ كتب الفكر الإسلامي التي ناقشت واحدةً من القضايا الحَسَّاسة قديماً وحديثاً.

قَصَدَ النامي من دراسته التحليلية هذه تسليطَ الضوء على ظاهرة النفاق كما تُحَدِّدُها الموازينُ الإسلامية، وكما كَشَفَتْها الأحداثُ في سيرة الرسول ﷺ. ووَضَعَ كتابَه هذا في سبعة فُصُولٍ، أوَّلُها وثانيها حَدَّد فيهما المشكلة والمنهج، وبيَّنَ أصل الاصطلاح، ثُمَّ كان الفصلان الثالث والرابع أقربَ ما يَكونانِ فصولاً تاريخية استعرضتْ ظاهرة النفاق نشأةً وتطوراً، أما الخامس من فصول الكتاب فيصبّ في موضوعه الأساس، وهو ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية، أوْضَحَ فيه موقف المنافقين من العقيدة والصلاة والنفقة والصدقات والجهاد، وجاء الفصلُ السادس خلاصةً لِمَا

تقدَّم، وإيجازاً وجمعاً للملامح العامة لِهَذه الظاهرة، بينما أفرد الفصل الأخير للحديث عن أحكام المنافقين.

وثَمَّةَ أمورٌ تُمَيِّزُ عملَ النامي هذا عن غيره من الدراسات في موضوعه:

أولاً: تناوُلُه ظاهرةَ النفاق من جانبيها العَقَدِيّ العَمَلِيّ، والأول هو المعنى الشائع للنفاق، وهو الذي كان على عهد الرسول ﷺ، ونَزَلَ القرآنُ بكشف أستار المتلبّسين به. أما الثاني فيَعْنِي: عدم التزام المرء بواجبات الإسلام فعلاً وتركاً، وهو ما اصطلح الإباضيةُ ـ والنامي منهم ـ على تسميته (كُفْرَ النِّعْمَة). وغالبُ مَنْ تناولَ الظاهرة لَمْ يدرسْ هذا الجانب الأخير، وقد نبَّه النامي في أول كتابه إلى خطورة الجهل بِحَقَائق اصطلاحات الإسلام ومُوحِيَاتِهَا الشرعية، ومن هذا المنطق حرص على دَحْضِ بعض الأفكار الاستشراقية حول ظاهرة النفاق ـ من نَحْوِ إطلاق صفة (المعارضة المسلمة) على المنافقين ـ فهو يَرَى فيها ما هو «أَبْعَدُ من لَعِبٍ عابرٍ بالألفاظ، دون مراعاةٍ لِمَدْلُولاتِهَا العميقة الدقيقة». مُؤكِّداً على أنّ «الكلمة تفقد معناها في الحسّ الإسلامي، حين تُسْتَعْمَل خارج إطارها الذي أراده الإسلامُ لَهَا»، ورُبَّما تُستبدل بِهَا اصطلاحاتٌ وشعاراتٌ وأفكارٌ غريبة لا تَمُتُّ إلى الإسلام بصلة.

ثانياً: معايشة النامي لِهَذه الظاهرة في شتى ميادينها وبِمُخْتَلِفِ أشكالِهَا، وإدراكُه خطورة هذا «تلك العناصر المنافقة، التي تَنْدَسُّ في بناء المُجْتمع المسلم، وتَكِيدُ له، وتَعْمَلُ على هدمه»؛ لذلك جعل التنبيه إلى مثل هذه الظواهر، وأبعادها، وكشف خباياها وأُصولِهَا من جلائل أعمال الفكر الإسلامي، وهو يَرَى «أنَّ التصدِّي لكشف هذه الأفكار الشاذة والضلالات الزائفة ووَضْعِهَا في موضعها الصحيح من تاريخنا مِنْ أَوْجَبِ الواجبات تِجَاهَ هذه الأمة؛ لتصحيح تاريخها أولاً، ولوضع أجيالِهَا على الطريق الصحيح لِمَا يستقبلها من الزمان، وحتى لا يتكرر عليها مآسي هذه النماذج الكريهة».

ثالثاً: اتّباعُهُ منهجاً يُجَنِّبه خطرَ تَمْييعِ المفاهيم والاصطلاحات، وخطرَ التطرُّف ومُجَاوَزَةِ الحد في استعمالِهَا في آنٍ واحد، وهو ما أشار إليه بقوله:

«والمنهجُ الذي سنحاول التزامَه في هذا البحث هو الارتباطُ رأساً بالقرآن ـ وهو النص الأساسي الذي يَسْتَنِدُ لَهُ بناءُ العقيدة الإسلامية ـ ، ثُمَّ بالبيان الصحيح الصادق لِهَذا النص القرآنِيِّ ـ وهو الصحيحُ من سنة النبي ﷺ ، وعَرْضُ هذه النصوص في إطار السيرة وأحداثها ، وتَجَنُّبُ التأويل الملتوي الذي يُحَاوِلُ صرفَ النص لتأييد رأيٍ مُعَيَّن ، أو وُجْهَةِ نظرٍ معينة مسبقة».

وتَمَاشياً مع هذا المنهج اشتملَ كتابُ النامي على استقصاءٍ لآيات النفاق ، وأحاديثه ، ومواقِفِ المنافقين في السِّيرة النبوية ، مع تَحْليلٍ مَوْضُوعِيٍّ لَهَا.

وسَعْياً نحو هذه الشمولية تنوَّعتْ مصادِرُه ، فاستفاد من كتب التفسير وعلوم القرآن ، وعلى رأسها: تفسير ابن جرير الطبري ، والكشاف للزمَخْشري ، وأحكام القرآن للجَصَّاص ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وتفسير ابن كثير ، وفتح القدير للشوكانِيّ ، وأسباب النُّزول للواحدي. واعتمد كتب السنة المعتبرة وشروحها. كما رجع إلى مصنفات السّيرة النبوية ، مثل: سيرة ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، وزاد المعاد لابن القيّم. إضافة إلى مؤلفاتٍ أخرى رفدت دراسته ، ككتاب الدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلانِيّ؛ الذي اعتمد مَخطوطته المحفوظة بالمتحف البريطاني في لندن ، ولَمْ يَفُتْهُ التعريجُ إلى دراسات المستشرقين ، وبعض الأبحاث المعاصرة.

تأخَّرَ صدور الكتاب في طبعته الأولى حتى سنة ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م؛ إذ قامت بإخراجه الدارُ السلفية بالكويت في ١٦٦ صفحة من القطع المتوسط بخط صغير ، ولعلَّ هذا الكتاب هو الإنتاج الذاتيّ الوحيد الذي صَدَر للنامي إذا استثنينا أطروحته الأكاديمية ، وباقي أعماله يندرج ضمن مَجَالِ التحقيق والإخراج والترجمة. ومع أهمية الكتاب ، وعُمق تَحليله لَمْ أجِدْ مَنْ تناوله بالدراسة ، وحتى الدراسات المكتوبة في موضوعه لَمْ تعتمدْه ، ولَمْ ترجع إليه ، ولعل من أهم أسباب ذلك: قلة عدد نسخه الصادرة في طبعته الأولى والوحيدة ، وتوزيعها في نطاقٍ مَحْدُود. ثُمَّ اطلعتُ بعدَ حينٍ على سلسلة مقالات كتبها (محمد الخولي) تحليلاً لأفكار الكتاب ، نُشرت في مجلة

(النهضة) الصادرة بسلطنة عمان في الأعداد ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، أكتوبر ١٩٨٠ م.

ونظراً لقلة انتشاره ونُدْرَةِ نُسَخِ الطبعة الأولى منه عَقَدْتُ العزمَ على إخراج طبعةٍ جديدة له ، وفي ظلّ فقدانَ الأصل المخطوط الذي كتبه المؤلِّفُ بيده لَمْ أَجِدْ بُدّاً من اعتماد طبعته الأولَى ، مع مُحَاوَلَةِ الرجوع إلى مصادر النامي ، وتوثيق نصوص الكتاب منها مباشرة. وضَمَّنْتُ حواشِيَه جُملةَ تعليقاتٍ خَتَمْتُها بحرف (س) تَمْيِيزاً لَهَا عن تعليقات مؤلفه ، مقتصراً فيها على ما تدعو إليه الحاجة خشية الإكثار والإطالة.

وأشير في الأخير إلى استعانتي بثلاثة مصادر أفادتني كثيراً في ضبط مادة الكتاب:

١ـ كتاب «صِفَة النِّفَاق وذمّ المُنَافِقِين» لأبي بكر جعفر بن مُحَمَّد الفِرْيَابِيّ (ت ٣٠١ هـ)؛ بتحقيق: زهير الشاويش. الصادر عن المكتب الإسلامي في بيروت (ط ٣: ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م).

٢ـ كتاب «صِفَة النِّفَاق ونَعْت المُنَافِقِين» لأبي نُعَيْم أحمد بن عبد الله الأَصْبَهَانِيّ (ت ٤٣٠ هـ)؛ بتحقيق: عامر حسن صبري. الصادر عن دار البشائر الإسلامية في بيروت. (ط ١: ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م).

٣ـ كتاب «ظَاهِرَة النِّفَاق وخَبَائِث المُنَافِقِين في التاريخ» لعبد الرَّحْمَن حَسَن حَبَنَّكَة الميدانِيّ (ت ١٤٢٥ هـ) ، الصادر عن دار القلم في دمشق. (ط ١: ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م).

أسأل الله التوفيقَ والقَبُولَ الحَسَن. رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً.

سُلطان بن مبارك بن حمد الشيبانِيّ
حي النور/ رُوِي ـ مسقط العاصمة
الجمعة ٨ شوال ١٤٣١ هـ
١٧ سبتمبر ٢٠١٠ م

تمهيد

هذه الفصول التي أقدمها للقارئ الكريم تهدف إلى تسليط الضّوْء على ظاهرة النفاق كما تحددها الموازين الإسلامية ، وكما كشفتها الأحداث في سيرة الرسول ﷺ.

كان وضوح العقيدة الإسلامية وتكامل منهجها من العوامل الأساسية التي كشفت نماذج بشرية ، صنفتها الموازين الإسلامية حسب تجاوبها مع العقيدة الإسلامية ومتطلباتها سلباً وإيجاباً.

والعقيدة الإسلامية تَعْنِي بوضوحِ التسليمَ الكاملَ لله ، والخضوعَ التام لأمره ، والتصديقَ الجازم برسالة الرسول عليه السلام ونبوّته ، والطاعة التامة لأوامره ، والانتهاء الصَّارِمَ عن نواهيه ، والالتزام قدر الجهد والاستطاعة بأوامر الله وتعاليم دينه في السّرّ والعلن ، وذلك كله في إطار منهج دقيق محكم يوجّه نشاط الإنسان كله في جميع صوره ، الصغير منها والكبير ، والجليل والحقير ، وِجْهَةً تنتهي في غايتها إلى الإسلام الكامل لله ، والإذعان التام له.

والغاية التي تستهدفها تعاليم الإسلام في شرائعه وشعائره هي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، وذلك بعبادته وحده ، والاتجاه إليه في كل ما شرعه من عبادات تعين العبد على استكمال صفة «التقوى» ، وتحقق له الصلة الدائبة المستمرة ، والرقابة الدائمة لله تعالى في كل عمله. وكذلك في الالتزام بجميع النظم والقواعد التي خَطَّها التشريعُ الإسلامي لحياة الجماعة ، ونَظَّم بها صلات الأفراد فيما بينهم ، ورسم فيها سياسة الدولة ، وقوانين العمران والاجتماع.

والناس في حياتهم أمام صراعٍ متجدد ومعركة متصلة يفرضها التفاعل بين نوازع الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، وقد مضى أمر الصراع في حياة «الإنسان» في هذا الإطار، وكانت المعركة في حقيقتها بين الحق والباطل والهدى والضلال.

وما ينعكس من ظواهر الصراع إنْ هو إلا تعبيرٌ وتجسيمٌ لحقيقة هذا الصراع الدائم الدائب؛ الذي بنى الله عليه أمر الناس وحياتهم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وإذا كان «الفساد في الأرض» إنما هو في حقيقته كلُّ ما يؤدي إلى التنكر لشريعة الله سبحانه التي أرسل بها رسله، والتي وَضَعَتْ موازين الحق والعدل لحياة الناس؛ فإنَّ منهج الإصلاح الذي حملت النبوةُ أعباءَه كان هو المنهج الوحيد الأصيل؛ لإحقاق الحق ودرء الفساد واجتثاثه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وهو منهج مستقل بذاته في مصدره، متميز في أهدافه ووسائله. وصورةُ التفاعل بين هذا المنهج الإسلامي المتميز وما حَوْلَهُ تتمُّ في إطار التناقض والاحتكاك التلقائي، الذي يفرضه التقاء عنصرين ينعدم الانسجامُ بينهما، ويُصِرُّ أحدهما على الحلول محل الآخر.

وهُنا ووفْقَ أسلوب المنهج الإسلامي الذي لا يقبل أن ينازعه غيره من المناهج على التحكم في حياة البشر، فإنَّ الواقع الاجتماعي لأي جماعة من الناس يبتعد عن الإسلام، كلما فقد الانسجام مع منهجه وتعاليمه، وكلما تعارض في تصوراته وأنظمته ومعاملاته عن تلك التصورات والأنظمة والمعاملات التي يقررها الإسلام.. وصفة «الإسلام» بالنسبة للفرد أو للجماعة أو للدولة تتحقق بمدى ارتباطهم بأحكامه وتعاليمه، ومدى التزامهم بوسائله وأهدافه. وقد وَضَعَ المنهجُ الإسلامي نفسُه ميزاناً دقيقاً يستطيع الناس ـ دائماً ـ أن يقيسوا عليه أنفسهم وأحوالهم؛ ليتبينوا مدى اتصافهم بصفة الإسلام أو مدى ابتعادهم عنه. والقضية على الحالين جِدٌّ لا هَزْلَ فيه، فأنت إما أن تكون في صَفِّ الإسلام، فأنت مِنْ جُنْدِ الرحمن، تلتزم أوامره

وتهتدي بهديه وتعيش وفق أحكام دينه القويم. أو تكون في صف الشيطان تعادي الله وتحادّه، تعصي أوامره، وتتنكب عن هديه وتنهج غير سبيل الله.

وكلُّ سبيلٍ غير سبيل الرحمن هي سبيل الشيطان مهما كان اسمها وأياً كان وصفها، أو ما اتخذته من وسائل الخداع والتمويه، أو اتخذه له أصحابها من أساليب التبرير أو التزوير: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] وعندما يستشعر المرء للحظةٍ واحدة أنه سيجد خارج إطار الإسلام ونُظُمِهِ ما هو خيراً منه فقد خطا خطوته المدمّرة المهلكة إلى مهاوي الردىٰ؛ لينْضَمَّ إلى القطيع الضال الهالك.

وقد ختم الله رسالاته إلى الناس بهذه الرسالة العظيمة التي قام نبينا عليه الصلاة والسلام بتبليغها إلى كافة الناس، فكان أسلوب التبليغ نفسُه منهجاً ثابتاً لأتباع هذه الرسالة، يقتدون به ويستأنسون بهديه في تبليغهم رسالة الإسلام بعده لمن يتتابع من أجيال الناس. والمسلمون مكلفون بتبليغ الرسالة إلى الناس كافة جيلاً بعد جيل، وهم الشهداء على الناس بما استحفظهم الله تعالى من هذا الحق المبين: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والناس مِنْ بَعْدُ ثلاثةُ أصنافٍ:

* صنفٌ آمن بالله وصدق رسوله ولزم دينه، فهو دأبه يسعى لينال رضا الله سبحانه، وليفوز برحمته ويدخل جنته، لا يدّخر في ذلك وُسْعاً، فهو إمَّا في فرضٍ أو سُنَّة، أو عمل صالح أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو جهاد في سبيل الله بما أوتي من قوة وجهد، عابدٌ زاهد تائب مستغفر، فهذا على النهج الأقوم والسبيل الأحكم. وهو عنصر تلك الطائفة الكريمة التي وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «**لا تَزَالُ مِنْ أُمَّتي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذلهم وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ؛ حَتَى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلى ذلِك**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في ٦١ كتاب المناقب: ٨، وانظر اللؤلؤ والمرجان: ج: ٢: ٢٦٣.

* وصِنْفٌ أهلُ ضلالٍ وعُتوٍّ وكِبْرٍ ، وأصحابُ فساد وأشَرٍ وبَطَر ، كفروا بالله وجحدوا آياته وكذّبوا رسله ، ونهجوا لأنفسهم سبلاً زيّنها الهوى وموّهها الشيطان ، فهم أهل الفساد في الأرض: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

* وصنفٌ ثالثٌ ، نَسَبَ نفسَه على أهل الإسلام ، ولكنه أخذ الأمر مأخذ الهزل ، وسَلَكَ به مسلك الخُبْث والغش ، فلا هو حَزَمَ أمره فكان في صف أهل الإيمان في صدق عقيدته والتزامه بأمر الله وسنة رسوله ونصرة دينه ، ولا هو جَاهَرَ بالكفر الصريح ، بل سلك سبيلاً ملتويةً عرجاءَ ، ونظر بعينٍ موبوءةٍ حولاءَ ، فهو مدخولُ العقيدة ساقطُ العمل ضالعٌ في خيانته للإسلام وأهله ، يلبسُ عليهم أمره ، ويهدم بنيانهم وهو مُتَسَتِّرٌ بثيابهم مُتَسَمٍّ بأسمائهم ، فهذا من المذبذبين المتحيرين ، حَسْبُهُم على هذا الفساد والاعوجاج ما أعده الله لهم من العذاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥] والناس لا بُدَّ لاحقون بأحد هذه الأصناف كُلٌّ حسب عقيدته وعمله.

وما نعلم ضرراً أصاب الأمة الإسلامية أشد مما جاءها من قبل هذا الصنف الثالث ـ صنف المنافقين ومرضى القلوب ـ المدخولين في عقيدتهم. وإنما أوتيتْ مِنْ قِبَلِ هؤلاء لَمَّا لَبسُوا عليها أمرهم فاستخفوا في ثيابها وكادوها من قريب ، وقد غفلتْ عنهم وهم ينسلخون من ثوب الإسلام في تمويههم وتلوُّنهم ، ولم تَفْطَنْ إلا وهم ينسلخون بها عن دينها حين آل إليهم أمرها ، وغَلَبُوا على شأنها.

يتم كل ذلك وهم يتسمون بالإسلام ، ويسلكون مسلك أسلافهم حَذْوَ النعل بالنعل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

وقد قضت حكمة الله تعالى أن تكون هذه الفئة دُمَّلاً[1] في جسم هذه

---

(١) الدُّمَّل (كَسُكَّر): القَرْحُ. (س).

الأمة، لم تَصْفُ منه حتى تلك الفترة الأولى من حياتها التي شهدت نزول الوحي وتربية النبوة. وكلما استفحل أمر هؤلاء واشتد شأنهم كلما انحرفوا بهذه الأمة عن منهجها القويم، وطريقها المستقيم[1]... وهم وإن اختلفوا في مناهجهم وأساليبهم وطرائقهم في حرب الإسلام وأهله والشَّغَب عليه؛ فإن الذي يجمعهم هو تَسَمّيهم باسم الإسلام، وإظهارهم أنهم ـ على ما هم عليه من الدَّخَلِ[2] والنفاق ـ إنَّما يجتهدون للإصلاح ويعملون للحق!!

وقد تعرضت المجتمعات الإسلامية للعديد من الهَزَّات في الداخل والخارج، تَرَكَتْ أثرها ومِيسَمَهَا واضحاً خلال تاريخها المتطاول، وكان لذلك كله أثره في إبعادها عن النبع الأصيل لدينها القويم، أو إرجاعها إليه في مَدٍّ وجَزْرٍ دائبين.

ولعل أشد ما تعرضت له هذه الأمة هو وقوعها تحت السيطرة المباشرة للأمم المسيحية[3]، التي حكمتها بنظم مخالفة للشرائع والنظم الإسلامية، وفرضت عليها أنماطاً من الحياة غير التي يصنعها الإسلام، ويرضاها لأهله. ولعل أخطرَ ما في هذا الأمر وأشدَّه أنه خَضَعَ لمخطط منظم دقيق، يهدف إلى محاربة الإسلام وسلخ المسلمين عن إسلامهم في كل مجال من مجالات الحياة.

فقد تَمَّ إبعاد الأنظمة الإسلامية عن الحكم والسياسة، وأُدخلت تراتيبُ ونظمٌ غير إسلامية، وتم ذلك كله في نطاق ما عُرِفَ بفصل الدين عن الدولة. ثم أبعدوه[4] عن التأثير في مناهج التربية والتعليم، فأصبح ـ بدلاً من أن يكون رُوحَهَا ـ أثراً، وانحصر أمرُ أنظمته في دائرة القوانين المختصة بالأحوال الشخصية التي يصبغها بصبغته.

---

(١) تكرار «كُلّما» في مثل هذا الموضع خطأٌ شاعَ استعمالُه في اللغة. (س).

(٢) الدَّخَلُ: ما داخَلَ المرءَ من فسادٍ في عقلٍ أو جسمٍ. (س).

(٣) لم يستخدم القرآنُ هذه اللفظة للتعبير عن أتباع المسيح عليه السلام أو المنتسبين إليه، بل سَمَّاهم «النصارىٰ». (س).

(٤) يَعْني: أبْعَدُوا الدينَ... (س).

مجَرَّدُ مادةٍ تُدْرَسُ في طريقةٍ باردةٍ لا فاعلية لها ، والتي[1] لم تَسْلَمْ كلها لتشريعاته فنازعَتْها القوانينُ الوضعية في كثير من بلاد الإسلام ، واقتحمتها عليها ـ بعد استقلال هذه البلاد ـ بطريقة لم يجرؤ عليها المستعمرون من قبل. وانحصر الأمر في إطار العبادات التي نازَعَتْهَا أنماطُ الحياة وأساليبُها ، حتى كاد يتلاشى مفعولها المطلوب. وأصبحت في غالب الأحيان مظهراً لذلك الحديث الشريف: «**يَأتِي زَمَانٌ عَلىٰ أُمَّتِي يَكُونُ الصَّابِرُ فِيهِم عَلىٰ دِينِهِ كالقابِضِ عَلىٰ الجَمْرِ**»[2]. مِثْل حال الصائم الذي يُمْضِي يومَه مُمسكاً عن الطعام والشراب ، ولكنْ تُلاحقه صُوَرُ التبرج الفاحش حيث اتجه ، ويَمْلأُ سَمْعَهُ البَذَاءُ والهُجْرُ من كل جانب. وأصبحت المساجد في واقعها عبارة عن واحة صغيرة لا يتجاوزها المرء حتى تستلمه أجواءُ مرديةٌ مهلكة ، تكتنفه بالسوء والأذى من كل ناحية.

ويتم هذا كله في ديار الإسلام وبين مسلمين يتسمون بهذا الاسم.. فتتبرج الفتاة والمرأة ، وكل واحدة منهما تحسب نفسها مسلمة ولا تقبل أن يَنْزِعَ عنها أحدٌ هذا الوصف.

ويهذي الرجل والفتى بكل فكر سقيم مدخول يفضي بصاحبه إلى كفر صريح ، وكل واحد منهما يحسب نفسه مسلماً ، ولا يقبل أن يُنْزَعَ عنه وصفُ الإسلام ، ثم هم يرتكبون مختلف صور المعاصي ـ رجالاً ونساء ـ بلا تأثُّمٍ ولا تحرُّجٍ ولا مسارعة إلى التوبة ، ويحسبون أنفسم مع ذلك مسلمين.

وكما أن دين الله يسر ، وأن رحمتَه سبقتْ غضبَه ، فإنه ـ سبحانه ـ يغار على محارمه ، ولا يحب أن يُشْرِكَ به أحدٌ في عمل ، ولا أن يُستهزأ بدينه وآياته على أي صورة من صور الاستهزاء.

وكذلك ، فإنه لا فلاح لهذه الأمة حتى تصفو في بنائها من عبثِ كلِّ هازلٍ وهازلة ، وحتى يكون التزامُ أهلها بدينهم وقيامُهم عليه هو قيام أهل الجد

---

(١) في الأصل: ولا التي لم تسلم... ولعل إسقاط «لا» أولىٰ؛ كما أثبتناه. (س).

(٢) رواه الترمذي عن أنس بسند صحيح.

والصدق والإخلاص ، وليس قيامَ المداهنة والهوى والكسل. ولن يَصْلُحَ أمرُها حتى يكون الغالبُ عليها هو سَمْتَ التقوى والصلاح اللَّذَيْنِ ينبنيانِ على عقيدة صحيحة ، وعمل صالح ، ورقابةٍ دائمة لله سبحانه وتعالى.

ولأمْرٍ ما أخَذَ التنبيهُ على دور المنافقين وخطرهم ، وفضح أساليبهم ووسائلهم حيّزاً غير قليل من كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفي سيرة رسول الله ﷺ وهديه ، وأنا ـ في هذه الفصول ـ وفي إطار النصيحة لنفسي وأمتي ، سأحاول بيان ملامح فئة المنافقين في إطارها التاريخي ، وكما نبَّه عليها وحذَّر منها القرآن والرسول ﷺ ، وإنما يكون هلاكُ المرء في كثير من الأحيان عن غفلةٍ غالبة ، أو سهو مَحْضٍ ، حتى يتنبه غافلٌ ، ويتذكر سَاهٍ ، فيُصْلِحُ المرءُ من نفسه ما أفسدته الغفلةُ والسهوُ ، أو جَرَّ إليه الحَيْرَةُ والجهل. والعاقل من وُعِظَ بغيره. . . ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢١ جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ — وكتبه

١٢ / ٧ / ١٩٧٤ م — **عمرو خليفة النامي**

الفصل الأول
كلمة في المشكلة والمنهج

قد يستغرب القارئ ظهورَ مثل هذا البحث في هذا الموضوع ، فهو يبدو لأول وَهْلَةٍ موضوعاً واضحاً لا يحتاج أن يُفْرَدَ له بحثٌ خاص. ثم هو في ظاهِرِهِ أَدْخَلُ ما يكون في قضية «الدِّين» ، و«علاقة الإنسان بربه» وهما أمران يُعرِضُ الناسُ اليومَ عن الخوض فيهما. فالاحتكام إلى الصِّيَغِ الشرعية الدينية أمرٌ يتجنبه الناس اليومَ مدفوعين بدافِعَيْنِ متمايزين: فهناك من يتجنبه تورُّعاً ، وهو يتحرّج من استخدام هذه الصيغ الشرعية الدينية؛ خشية أن يرمي امرءًا مسلماً بما هو ليس فيه ، فيلحقه الإثم لذلك.

وهناك قسم آخر من الناس ـ وهم الأكثر ـ قد نبذوا وراءهم هذه الصيغ الشرعية ، فلم يَعُدْ لها في مفاهيمهم غيرُ صدًى غائمٍ مُشَوَّشٍ ، فهم يستخدمونها ـ عندما يفعلون ـ في غير مواضعها ، ويُلْبِسُونها غيرَ أهلها ، واستخدامهم لها لا يخضع إلا لمدلولاتها اللغوية العاميّة المندرجة على ألسنة العوام بظلالها العامة المائعة.

وهذا الموقف يشير إلى ظاهرتين خطيرتين في التكوين الذهني لمجتمعنا الإسلامي المعاصر.

فالقسم الأول من الناس: الذين يتحرجون من استخدام الصيغ الشرعية ، ويترددون في إطلاقها والاحتكام إليها ، والانطلاق من موحياتها؛ إنما جاءهم ذلك التردد والإحجام من قبل غيمومة هذه الاصطلاحات والتصورات في أذهانهم. وأمرُ الدين والعقيدة ينبغي أن ينتفي عنه اللبسُ والغموض ، وينبغي أن يكون واضحاً لدى أصحابه أشدَّ ما يكون الوضوحُ؛ حتى تكون مواقفهم

تَبَعاً لذلك محددةً واضحةً ، وأن تكون تحركاتهم تجاه الصراع المتصل في البناء الاجتماعي المتجدد صريحةً متميزة؛ لتنفي الزائفَ وتُبقي الأصيلَ ، ولتعتمد الصحيح وتنفي الدخيلَ.

ومعروفٌ أن قوة الموقف وصراحته واندفاعه ترتبط ارتباطاً أصيلاً بوضوح الدوافع الأساسية لهذا الموقف.. فلا نطمع مثلاً من شخص أن يحارب عملاً أو فكراً أو واقعاً ، لا يجزم هو بكونه منكراً أو فساداً ، أو أن يحارب بدعةً لا يعلم هو أنها كفرٌ أو إلحاد.. والتنبيهُ إلى هذه الظاهرة وخطرها أمرٌ واجب ، فهي ظاهرة تُجَسِّم تميُّعاً واختلاطاً في الفهم لدى المسلمين ، وتذبذباً في التصوُّر عندهم ، ولا يمكن أن تُرَدَّ بحالٍ من الأحوال إلى التحرُّج والورع ، بل إنَّ هذا التفسير نفسَه لهذا الاتجاه على هذه الصورة ما هو في الواقع إلا انعكاسٌ لذلك الانحراف والتشويش.

والظاهرة الثانية: تعكس ذلك الجهل بالتصورات والمفاهيم الإسلامية ، وتُجَسِّم الاستهتار الواضح بِقِيَم هذا الدين ومُثُلِه ، والإعراض التام عن توجيهاته وتعليماته ، حتى إن اختلاط المفاهيم لدى هذه الفئة قد يصل أحياناً إلى الوقوع في أخطاء فادحة فاحشة ، فيطلق اسم الكفر والنفاق مثلاً على من صحَّ إسلامهم ، واستقامت عقيدتهم ، ويستخدم لفظ الشهادة والاستشهاد لمن لم ينطق بكلمة الإسلام فضلاً عن أن يكون قد مات في سبيل الله ، وفي سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا... ويستعمل الوصف بالإيمان والعقائدية للملاحدة والمشركين والمنكرين لله تعالى المحاربين لدينه ورسله وأنبيائه!!

ويكاد الباحث المتأمل ينتهي في تشخيصه لهاتين الظاهرتين إلى أن السبب الحقيقي الكامن وراء هذه الظواهر هو الجهل بحقائق اصطلاحات الإسلام ، وموحياتها الشرعية والدينية. ولا نعرف دواء للجهل غير العلم. ولذلك فإن هذه المحاولة تجد ـ في رأيي على الأقل ـ مبرراً حقيقياً وملحاً للظهور ، ولعلها تكون مقدمة لدراسات تالية ، تسهم في تأصيل المفاهيم الإسلامية ، وتأكيد مصطلحاتها الشرعية والدينية وترسيخها ، وإظهار الشخصية الإسلامية المتميزة التي لن تتأكد ، ولن تصبح مؤثرة ، وفعالة حتى تحقق لنفسها

المسلمون في رجوعهم إلى هذا الأصل الذي حدده الله سبحانه وتعالى في قوله في هذه الآية المحكمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وعندما تتأكد النية في الرد إلى الله، أي: إلى كتاب الله، وإلى الرسول، أي: إلى سنته ﷺ، ثم يقع الخلاف والتنازع لسبب الخلاف على الرواية أو الخلاف في الفهم والاستنباط فذلك واسع في الدِّين. «فَأَهْلُ الإِيمَانِ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي بَعْضِ الأَحْكامِ وَلا يَخْرُجُونَ بِذَلِكَ عَنِ الإِيمانِ. وَقَدْ تَنَازَعَ الصَّحَابَةُ في كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِ الأَحْكامِ وَهُمْ سَاداتُ المؤمِنين، وَأَكْمَلُ الأُمَّةِ إِيْماناً»[1]. وإن أهل الإيمان ـ كما يقول ابن القيم ـ: «لا يُخْرِجُهُمْ تَنازُعُهُمْ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الأَحْكامِ عَنْ حَقِيقَةِ الإِيمانِ إِذا رَدُّوا مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ كَمَا شرطَ اللهُ عَلَيْهِم»[2]. ومعنى الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله هو الرد إليه نفسه ـ ﷺ ـ في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

فلما انتشر الإسلام واتسعت داره وتفرق الصحابة في الأمصار، ووقع في كل ناحية ناس منهم اختلفت الرواية تبعاً لاختلاف المصادر، وشهود بعض الصحابة ما غاب عنه البعض الآخر، وحمل بعضهم ما لم يحمله غيره. ومعروف أنه حتى وفاة عمر رضي الله عنه ظل سادات الصحابة مرتبطين بمدينة الرسول عليه السلام، لم يتفرقوا، ولم تتوزعهم الأمصار. فقد اتضح لهم حتى ذلك العهد غالب ما تدور عليه أحكام الإسلام وهم حاضرون في مدينة الرسول عليه السلام، حكم بها الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وشهدت هذه الأحكام إجماع الرواية والرأي كليهما.

ولا نعرف أن هذا الأمر ـ أعني: الاختلاف في الرواية ـ كان يمثل مشكلة ذات بال حتى يحتاط لها المسلمون آنذاك. ولو بلغ بها الأمر شيئاً من ذلك لظهرت بعض التدابير التي تحول دون استفحالها، كما حدث في شأن كتابة

---

(١) ابن القيم: أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين ٤٩١.

(٢) المصدر السابق.

القرآن في المصاحف ، واعتماد المصحف الجامع وحده ، والتشدد في قبول الحديث عن الرسول ﷺ إلا بالشهود واليمين . . . بل نحن نجد أن مثل هذه التدبيرات في أمور الأحكام والفقه ، لا تستأثر بتأييد علماء الإسلام حتى فترة متأخرة .

فعندما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على موطأ الإمام مالك وحده ، منعه الإمام مالك من ذلك ، وقال : «يا أمير المؤمنين ، لا تفعل فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وما عملوا به ، ودانوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ، وغيرهم ، وإن ردَّهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم»[1] .

ومن هذا المنطلق اتسع العذر أمام المجتهد المخطئ في الأحكام خصوصاً ، شريطة أن يكون قد استفرغ جهده ، واتخذ الوسائل المطلوبة للاجتهاد . وكان الخلاف الواقع في أمور الأحكام والعبادات ناتجاً عن اختلاف الرواية في الغالب ، فهنا يكون العذر في الاختلاف واضحاً ؛ لأن المعتمد والمرجع هو ما بلغه من سنة رسول الله ﷺ ، فربما مضى بعض الصحابة في حكم على أمر لم يبلغهم فيه حكم للرسول ﷺ ، فاجتهدوا فيه برأيهم وخَفِيَ عليهم عِلْمُه كما حكم فيه الرسول عليه السلام عند غيرهم من الصحابة . . فنشأ اختلاف الأحكام ، وتعدُّد المذاهب من هذا السبيل وما جرَّ إليه .

وقد تهيأ اليوم من وسائل العلم والاتصال ما يمكن المسلمين من تجاوز تلك الحواجز القديمة كلها ؛ فيمكن اليوم بنوع من الجهد المستقر المنظم ، والعمل الدائب المتصل ، تحديد كل ما روي عن الرسول ﷺ من كل الطرق والوجوه ، وجمعه كله في صعيد واحد ، فيتم رد كل الأقوال في الفقه الإسلامي إلى أصولها الصحيحة من سنة رسول الله ﷺ ، وترك أسباب

---

(١) أمين الخولي : مالك بن أنس : ٥٥٤ ، وانظر المراجع هناك .

الخلاف التي أدى إليها اتباع الرأي دون السنة ، وتقليد الرجال حال غياب النص عند أوائل هذه الأمة من أصحاب المذاهب.

وهو أمر ـ رغم صعوبته ـ يسهل التوصل إليه عند توافر الجهود ، وتوافر النية ، ونبذ التعصب للرجال. ولا نعتقد أن في المسلمين من يترك سنة النبيِّ عليه السلام إلى قول عالم مهما علا كعبه ، وارتفعت درجته.

وأما إذا كان الخلاف وارداً لورود أكثر من حكم أو فعل للرسول عليه السلام في أمر بعينه ، وصح عنه النقل في ذلك ، ولم يعلم الناسخ والمنسوخ فيهما ، فذلك من التيسير الذي هو طابع هذه الشريعة الحنيفية السمحة ، وهو أمر محمود لا يبعث على الانزعاج بل يدعو إلى الاعتزاز.

ونحن في هذا الباب نحب أن ننبه إلى مسائل هامة نرجو أن يكون الأمر فيها واضحاً لدى المهتمين من المسلمين ، حتى يكون أخذها في الاعتبار مفيداً فيما ندعو إليه من نبذ الخلاف ، والتخلص من آثاره بالعودة إلى كتاب الله وسنته ، وما اجتمع عليه المسلمون:

* **الأولى:** أن الحفاظ على رصيد الفقه الإسلامي المتمثل في مذاهبه المختلفة أمر واجب ، لا يسع التفريط فيه بأي حال من الأحوال. والذي ينبغي أن تتجه إليه الدعوة للتقليل من حدة الخلاف المذهبي؛ هو عدم تقديم آراء المذاهب على ما صح من سنة الرسول ﷺ. أما ما اختلفت فيه الآراء ، ففقهاء الإسلام مؤتمنون ينبغي أن يحفظ لهم مكانهم وقدرهم ، ونصيحتهم للأمة واجتهادهم لها. وإن ترك اجتهاداتهم لغيرها لا ينبغي لغير من بلغ درجة الاجتهاد في المذهب نفسه. وأما العامة من المسلمين ممن لم تتوفر لهم أسباب الاجتهاد فسبيلهم تقليد العلماء المجتهدين في مذاهبهم.

* **الثانية:** ألا يتخذ منطلق العودة إلى السنة سبباً وذريعة لنبذ الأحكام الثابتة الصحيحة ، كما يحلو لبعض المستخفين بأحكام الإسلام من تتبَّع الرُّخص في المذاهب المختلفة ، وما يوافق الأهواء... وإنما الفيصل في هذا الأمر هو تقوى الله سبحانه وتعالى ، وتحري أوامره والأخذ بعزائم الشرع ، وليس العمل على تمييع أحكام الإسلام وأوامر الشريعة.

* **الثالثة:** أن يكون الرجوع إلى سنة الرسول حيث كانت، وممن جاء بها ممن لا مطعن في عدالتهم ونقلهم، هدفاً أساسياً يتوخاه المسلم، لا أن تتخذ هذه الدعوة ستاراً لنصرة مذهب بعينه وحمل الناس عليه، وذلك بإظهار ما اعتمده هذا المذهب من السنة، وعدم إظهار ما جاء من السنة على خلافه مثلاً.

وهكذا يتبين الدارس أن مجال الخلاف في الأحكام أو في الفروع ـ كما هو معروف في الاصطلاح ـ بين المسلمين واسع، وأن الخطر فيه هين يمكن تداركه والاتجاه به إلى فائدة الأمة وخيرها. بينما يكمن الخطر كله في الخلاف في أمر العقيدة، أو ما تعارف العلماء على تسميته بأصول الدين. فالخلاف في هذا أشد، ولم يعذر السابقون بعضهم بعضاً في هذا الأمر، وتشددوا فيه غاية التشدد؛ مما أدى إلى سفك الدماء، وتنافر القلوب، وتفرق الأمة.

ولعمري ينبغي أن يكون الأمر كذلك في شأن العقيدة، ولذلك فإن تمييع المفاهيم حولها شيء بالغ الخطر، عظيم الضرر. ومجاوزة الحد والتطرف في استعمالها واستخدامها في غير موضعها الصحيح يؤدي كذلك إلى أوخم العواقب، وأسوأ الآثار.

ولذلك فنحن سنحاول في هذا البحث أن نسلك منهجاً يجنبنا ـ بقدر الإمكان ـ مزالق الخطرين، خطر تمييع هذه المفاهيم والاصطلاحات وخطر التطرف ومجاوزة الحد في استعمالها، وتناولها وتقييم الآراء المختلفة حولها.

والمنهج الذي سنحاول التزامه في هذا البحث هو الارتباط رأساً بالقرآن، وهو النص الأساسي الذي يستند إليه بناء العقيدة الإسلامية، ثم بالبيان الصحيح الصادق لهذا النص القرآني، وهو الصحيح من سنة النبي ﷺ، وعرض هذه النصوص في إطار السيرة وأحداثها، وتجنب التأويل الملتوي الذي يحاول صرف النص لتأييد رأي معين، أو وجهة نظر معينة مسبقة، وهذا يقتضي أن نعرض إعراضاً تاماً عن كل التصورات السابقة التي تكونت

في إطار ثقافات وأحداث معينة مرتبطة بعصور معينة، وتغيرات اجتماعية وسياسية معينة.

وهكذا فإن ما نشترطه على أنفسنا في هذا المنهج هو الارتباط المباشر بالنص القرآني وسنة الرسول عليه السلام وأحداث السيرة، وعدم التحكم على هذه النصوص بفكرة مسبقة، بل تكوين الحكم من خلال هديها وتوجيهها.

ونحن نرجو أن يكون هذا المسلك منطلقاً صالحاً لعلاج مثل هذه القضايا الحيوية الهامة، خصوصاً وأن اختلاف الظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وسائر النشاطات الحضارية بين عصرنا هذا وما سبقه من العصور اختلاف ظاهر بين في كثير من المجالات... والإسلام يلزمنا بالانقياد لأحكام الكتاب والسنة، وتكييف حياتنا على ضوء من هديها وتوجيهها، وليس الحياة في إطار ثقافات وأنماط حياتية معينة لعصر معين أو لمجموعات بشرية معينة.

والذي يعطيه الإسلام هو تصورات صحيحة ثابتة ـ تستند إلى الحق المطلق ـ عن الله والكون والإنسان، ونظم وتشريعات منبثقة عن هذه التصورات تكون نبراساً هادياً للإنسان؛ ليعيش بذلك كله مسلماً كما هداه الله في كل عصر وكل مصر.

أما مجال الخلاف الثاني فكان في مسائل العقيدة أو «أصول الدين»، وهذه كانت تدور في أغلبها حول قضايا الألوهية وخصائصها مثل التوحيد والعدل والقضاء والقدر والصفات وغيرها، وقضية العبودية التي تتناول مسألة العلاقة بين الله والإنسان، ثم أحكام العلاقات بين الناس كما تحددها مواقعهم في إطار اعتقاداتهم حسب التصور الإسلامي، إلى ما يرتبط بهذه القضايا الكلية من قضايا جزئية متممة أو موضحة.. ولسنا هنا في حاجة إلى الخوض في هذا الميدان.

أما بحثنا هنا فمداره حول جزئية محددة في إطار موضوع العلاقة بين الله والإنسان، وأحكام الناس كل حسب عقيدته وعمله، وعلاقتهم فيما بينهم

كما يحددها التصور الإسلامي الصحيح المستند إلى الكتاب والسنة ، وهو مبحث ينبغي أن يصل في نتيجته إلى تحديد ملامح النماذج الإنسانية المختلفة مستنداً إلى أعمالها وعقائدها ، ثم هو يحدد تبعاً لذلك أحكام علاقات هذه النماذج الإنسانية فيما بين بعضها البعض.

والذي نقصده في إطار هذا البحث هو جزئية واحدة ، أو مشكلة واحدة تكون هي مدار هذه الدراسة ، وهي قضية «النفاق والمنافقين».

ما هو النفاق؟ ومن هو المنافق؟.. هل هو نموذج متميز ثابت محدد المعالم؟ أم هو نتاج مواصفات تخضع للزيادة والنقصان ، فيكون الشخص منافقاً في حال دون الأخرى ، ثم هل هو نموذج ارتبط وجوده بفترة نزول الوحي في المرحلة المدنية ، ثم انقطع أمره ، أم هو نموذج متكرر في تاريخ البشرية؟ وما هي المواصفات أو الصفات التي تجعل الشخص منافقاً عند الاتصاف بها؟ ثم ما هي أحكام المنافق في الدنيا؟ وما هو مصيره في الآخرة؟ وما هي أخطار النفاق كظاهرة اجتماعية في المجتمع الإسلامي؟

وهل هناك من وسائل لمواجهة هذه الظاهرة وعلاجها؟ وغير ذلك من المسائل المتصلة بالموضوع من جوانبه؛ التي نعتقد أنه في مقدورنا تناولها بما تتيحه لنا المصادر المحدودة الموجودة بين أيدينا.

* * *

الفصل الثاني
أَصْل الاصْطِلاح

و«النفاق» مصدر من مادة «نفق». والمادة عربية بلا شك، وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين من غير العرب إلى إرجاع المصطلح إلى لغات غير العربية، فهناك من اقترح أن يكون أصل المادة من الحبشية[١]. وهو تَمَحُّكٌ لا ضرورة له، ولا يحوجنا إليه البحث. وأغرب منه تفسير آخر يرجع أصل الاصطلاح إلى مادة «الإنفاق».. أنفق.. ويذهب إلى أن المنافقين هم فئة كانت تقوم بالإنفاق على المسلمين في الغزوات، ويتخلفون عن الغزو[٢]!! وهذا تأويل شديد الضعف، لا نستطيع أن نجد له مستنداً من أي وجه، ولا يحتاج المرء إلى مناقشته. فأصل المادتين مختلف في اللغة: أصل الإنفاق من أنفق، يُنفق، نفقة وإنفاقاً. بينما أصل النفاق من نافق، ينافق، نفاقاً. والفرق بين المادتين بعيد، ويستغرب الإنسان وقوع مثل هذا الخلط في مثل هذه المادة، خصوصاً وأن أصل هذه المادة في اللغة العربية موجود وواضح.

أما محاولة إرجاع الاصطلاح إلى نظيره في لغة الأحباش، فلا نعرف له داعياً غير هذا التمحك، الذي يحاول أن يرجع الدين الإسلامي إلى أصول مسيحية أو يهودية... وقد ذكر العلماء المسلمون عدداً من المفردات اللغوية التي وقعت في القرآن مما استجلبته اللغة العربية من اللغات المجاورة، ولم يذكروا النفاق في عداد هذا الكلمات[٣].

---

(١) Sh.E.I, Munafikun

(٢) R.B. Serjeant; Religion in the M.E 11,10

(٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن.

وأصل الاصطلاح ـ كما يورده علماء العربية ـ من نافقاء اليربوع ، وهو الجُحْر الذي يخرج منه إذا طُلِبَ؛ لأن له أجحرة يدخل بعضها عند الطلب ، ثم يراوغ الذي يريد صيده فيخرج من جحر آخر قد أعده[١] ، «فلما كان المُسِرُّ للكفر المُظْهِرُ للإيمان يبطن غير ما يظهر سُمِّيَ منافقاً»[٢] ولما كان النفاق في حقيقته إخفاء الكفر باطناً وإظهار الإسلام خوفاً وتعوذاً من القتل ، شابه في صورته ذلك الخداع الفطري الذي يتخذه اليربوع لإنجاء نفسه من مباغتات الهلاك ، وصلح أن يتخذ هذا الوصف اسماً مميزاً لهذه الفئة من الناس التي تمايزت عن المشركين بإظهارها الإسلام وعن المسلمين بإخفائها الشرك وإسرارها له.

قال ابن جريج: «المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه. ومشهده مغيبه»[٣]. فاستعارةُ صفة تلك الدابة المخادعة اسماً لمن هكذا وصفه من الناس في المدلول الشرعي أمر طبيعي ، لا يحوجنا إلى البحث عن مصدر آخر للاصطلاح خارج اللغة العربية. ويعزِّز هذا أن في اشتقاق المادة ما يفيد معنى الكن والستر ، فالنَّفَقُ: ـ مُحَرَّكَةً سَرَبٌ في الأرض له مَخْلَصٌ إلى مكان ، وانتفق: دخله... وفي المثل: ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَه[٤]. وقال في القاموس: «نافق اليربوع: أخذ في نافقائه. ونافق في الدِّين: ستر كفره وأظهر إيمانه»[٥].

وكثيراً ما تنحت مثل هذه الاصطلاحات في اللغة على هذا النحو ، الذي يستعير الصفة من أصل حسي ملموس في عالم الأحياء؛ للتعبير عن فكرة معنوية مجردة؛ كاتخاذ اسم الحِكْمَة من حَكَمَةِ الفرس ، والعقل من عقال

---

(١) انظر القرطبي: التفسير: ج: ١: ١٩٥، الجصاص: أحكام القرآن ج: ١ ، ص: ٢٦.
(٢) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ج: ٥: ٦٠٥.
(٣) ابن كثير: التفسير ١/ ٤٧ ، الطبري: تفسير: ٩٠.
(٤) الفيروز آبادي: القاموس المحيط: مادة (نفق). [والدُّرَيْصُ: تصغير الدَّرْص ، وهو وَلَدُ اليربوع. والمَثَلُ يُضْرَبُ لمن يُعْنَى بأمره ، ويُعِدُّ حُجَّةً لخصْمِه ، فينسى عند الحاجة. (س)].
(٥) المصدر السابق.

البعير. وقد كان كذلك «لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت»[1].

ويستطيع الباحث أن يضاعف من هذه الأمثلة والكلمات، فكذلك الأمر في اصطلاح «النفاق» الذي نستطيع أن نرده مطمئنين إلى هذا الأصل، الذي تذكره مصادر اللغة العربية دون حاجة إلى ما وراءه في اللغات الأخرى... أما محاولة إرجاعه إلى معنى الإنفاق، فلا نجد لذلك ما يدعمه لا لغة ولا معنى، ولذلك فلا حاجة إلى أخذ ذلك في الاعتبار.

ولا يعرف أن هذا الاصطلاح قد تداولته اللغة العربية قبل نزول الوحي به، فهو على هذا استعمال شرعي إسلامي مبتكر، جاء للدلالة على هذه الفئة من الناس التي تظهر غير ما تبطن، وتسر غير ما تعلن.

وقد شاع استعمال الاصطلاح في اللغة العربية بعد ذلك، فتخطى مدلوله الشرعي الديني إلى كل موقف يظهر فيه صاحبه غير ما يبطن، وهو ما عليه استعمال اللفظ الآن. ومثل هذا الاستعمال لا يقره الإسلام، فهذه الألفاظ لها عنده مدلولات شرعية تترتب عنها أحكام خاصة. واستعمال اللفظ خارج مدلوله الشرعي سيؤدي إما إلى ظلم مَنْ أُطْلِقَ عليهم إذا نالتهم أحكامه، أو إلى تعطيل الأثر العملي للأحكام الشرعية؛ التي تقتضيها هذه الأسماء بصورة يتدرج معها الأمر إلى تعطيل الأحكام الشرعية كلية.

وقد حرص القرآن حرصاً ظاهراً على بيان حقيقة هذا الاصطلاح الجديد، وإيضاح مدلوله. ورسم بدقة متناهية في عدد من السور ملامح هذه الفئة من الناس، الذين نجم أمرهم في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها. «وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه من الناس (في مكة) من يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن»[2]. وكذلك لم تتبين ملامح النفاق كظاهرة في أول الهجرة «إذ

---

(١) الماوردي: أدب الدنيا والدين: ص: ٤، أبو حيان التوحيدي: المقايسات ط. السندوبي (١٩٢٩): ص: ٢٣٥.

(٢) ابن كثير: التفسير: ١؛ ٤٧، ابن تيمية: الإيمان: ١١٩.

لم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين شوكة تخاف... فلما كانت وقعة بدر وأعز الله الإسلام وأظهر كلمته، قال عبد الله بن أبي: هذا أمرٌ قد تَوَجَّه. فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب. فمِنْ ثَمَّ وُجِدَ النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب»[1].

وأول ما نزل من القرآن في صفة المنافقين في سورة البقرة، وهي أول ما نزل من القرآن بالمدينة، نزلت فيهم بضع عشرة آية[2] فيها وصف لهم وبيان لبعض أحوالهم وأخلاقهم، وضرب الله الأمثال لهم، ولكن لم ترد تسميتهم باسم النفاق في سورة البقرة، بل تحدثت الآيات عن صفاتهم وأحوالهم بإسهاب وبيان. وأول ما جاء ذلك ـ أعني تسميتهم باسم النفاق ـ في سورة الأنفال، وهي السورة الثانية في ترتيب النزول في القرآن المدني. وقد وردت الإشارة إلى المنافقين في الآية الكريمة التالية:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] ثم تتابع استعمال هذا الاسم ومشتقاته في القرآن، في الآيات التي عالجت هذه الظاهرة بعد ذلك[3].

وقد كان نزول آية الأنفال السابقة بعد غزوة بدر وتاريخ الغزوة هو (ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢ هجرية)، فنزول الآية كان بعد هذا التاريخ. فذلك أول ما سار عليه هذا الاسم، وعرف بين المسلمين كلفظ قرآني ذي مدلول شرعي وديني محدد، ولا يبعد أن يكون اللفظ قد عرف بين المسلمين قبل أن ينزل به القرآن، بل هذا هو الأقرب إلى النظر.

فقد جاء في السيرة «أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «**قد عرفتم أن رجالاً من بني هاشم قد أُخرجوا إكراهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله**». وسمى أبا البَخْتَرِيّ بن هشام والعباس بن

---

(١) المصدر السابق: ابن كثير: تفسير: ١: ٤٧.

(٢) البقرة: الآيات ٨ ـ ٢٠.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ط. الشعب: ٧١٦ ـ ٧١٨.

وفي النص السابق أطلق وصف النفاق على مُهَاجِرِيٍّ من السابقين من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن بشأن كلمة قالها، ولم يكن الإطلاق عاماً. فكأَنَّ الاصطلاح لم يكن تحدد لفئة معينة متميزة ـ ولكنه كان متردداً على الألسن في الاستعمال العام، ولم يأخذ بعد صبغة الاصطلاح الديني الشرعي، وهذا هو الظاهر ـ فإن النفاق كظاهرة لم يكن عُرف بعد.

وإذا راجعنا أقوال المفسرين في آية سورة الأنفال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإننا سنجد حصيلة أقوال المفسرين ترجع إلى ثلاثة أقوال[1]:

الأول: وهو قول ابن عباس وقتادة: إن الذي قال ذلك هم المشركون من أهل مكة، قالوه لما رأوا قلة المسلمين يوم بدر.

الثاني: أنهم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر. وهذا قول ابن جريج. وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: «غر هؤلاء دينهم». وإلى هذا القول يرجع قول كل من مجاهد ومحمد بن إسحاق، وروى مثله معمر.

الثالث: عن الحسن البصري أنهم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين. وذكر الزمخشري[2] أنهم المنافقون في المدينة. وقد ورد في السيرة ما يؤيد أن هناك من المسلمين من تخلف عن هذه الغزوة ـ أعني غزوة بدر. ولكن لا يعرف أنهم وصفوا بالنفاق، أو أن تخلفهم كان عن شك أو ريب.

فقد ذكر ابن إسحاق أن سعد بن معاذ قال للنبي ﷺ يوم بدر: «يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقْتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّفَ عنك أقوامٌ، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا

---

(١) ابن كثير: التفسير: ٢: ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٢) الزمخشري: الكشاف: ٢: ٢٢٨.

عبد المطلب ، فقال أبو حذيفة رضي الله عنه: أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس؟! لئن لقيته لألجمنه السيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر: «**يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟**» فقال عمر: يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه ـ يعني: أبا حذيفة ـ بالسيف ، فوالله لقد نافق»[1].

ولعل هذا أن يكون أول نص يرد فيه استعمال هذا اللفظ... وعلى فرض صحة الرواية ، فلنا أن نستنتج أن مدلول النفاق في حق أبي حذيفة رضي الله تعالى عنه إنما جاء من استشعار عمر رضي الله عنه لموادة أبي حذيفة آباءه وأبناءه وعشيرته من المشركين ، واستنكاره أن يستثنيَ الرسول عليه السلام أولئك النفر من بني هاشم من القتل حمية لذويه... وفرق بعيد بين ذويه من عتاة المشركين من أمثال أبيه[2] عتبة وعمه شيبة وأخيه الوليد ، وغيرهم من بني عبد شمس وعشيرته ، وقد جاؤوا مبارزين للرسول محاربين له ، وبين بني هاشم الذين خرجوا إلى بدر كرهاً ، واستكرههم قومهم على الخروج.

ولعل ذلك ـ أعني وصف أبي حذيفة بالنفاق ـ أن يكون قد جاءه أيضاً من ظنه برسول الله عليه السلام موادة عمه العباس ومن ذكرهم من بني هاشم حمية لهم وأثرة.. وهو من الظن السيِّء الذي لا يصح في حقه عليه السلام ، ولا يصح أن يسبق إلى خلد أبي حذيفة رضي الله عنه.

وإنما حق الصفوة من جند الله أن تصفو مشاعرهم وتصوراتهم من كل هذه الأكدار ، وأن يرتفع تقييمهم لأوامر الرسول عليه السلام وأعماله عن الدوافع والمقاييس الدنيا المشدودة إلى الوشائج الأرضية، وهي فلتة تنبه لها أبو حذيفة رضي الله عنه ، فكان يقول: «ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تكفرها عني الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً»[3].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢: ٤٥٩ ، السيرة الحلبية: ٢: ٤١٤.

(٢) الضمير هنا عائدٌ إلى أبي حذيفة ، فهو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (س).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٢: ٤٥٩ أود أن أذكر القارئ الكريم أنني استعملت طبعتي السيرة: طبعة محيي الدين عبد الحميد ، وطبعة السقا ، فحيث لم ترد الإشارة إلى طبعة السقا وزملائه ، فالإشارة إلى طبعة محيي الدين عبد الحميد.

الفصل الثالث
ابْتِدَاءُ ظاهِرة النِّفَاق في المدينَة

قبل الدخول في تفصيلات الموضوع لا بد من تحديد مراكز القوة أولاً في المدينة ـ مُهَاجَرِ رسول الله ﷺ ـ لأنها هي المسرح الذي ظهرت فيه الشخصيات الرئيسية التي سيتناولها هذا الفصل.

لقد كانت المدينة موطن قبيلتين أساسيتين من أصل جنوبي هما الأوس والخزرج. وكان معهما وفي جوارهما مجموعات يهودية. كان هذان الحيان من الأوس والخزرج ومن دار في فلكهما يعيشان صراعاً متصلاً، وكان هذا الصراع التقليدي ـ بين الحيين فيما بينهما وبين جيرانهم من اليهود ـ من العوامل الأساسية التي دفعت الكثير من كلا الجانبين إلى التطلع إلى وضع تتحقق فيه الغلبة لأحد الجانبين والاستقرار والأمن... وكانوا يتطلعون إلى منقذ يحقق ذلك. فقد ذكرت السيرة أن اليهود كانوا «يستفتحون على أهل يثرب بِنَبِيٍّ جديد يظهر فيهم، وكانوا إذا وقع بينهم وبينهم شيء من الشر قالوا لهم: سيبعث نبي قد أظل نقتلكم معه قتلة عاد وإرم»[1]. وكان هذا التوعد من اليهود هو الذي نبه النفر السابقين من الأنصار إلى الإيمان بالنبي ﷺ وتصديقه حتى لا تسبقهم إليه يهود[2].

وقد كان من الأهداف الأخرى التي لمحتها فراسة هؤلاء النفر من السابقين من الأنصار؛ أن إيمان أهل يثرب بالنبي ﷺ واجتماعهم عليه سيضع

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٢٩٢، السيرة الحلبية: ٢/ ١٥٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٩٢.

نهاية لذلك الصراع الدائب والقتال المستمر بين الحيين من الأوس والخزرج، وقالوا فيما قالوه بعد أن استجابوا لله وآمنوا به وصدقوا برسالته: «يا رسولَ الله إنما كانت بُعَاث، عامَ أَوّل، يوماً من أيّامِنَا اقتتلنا به ونحن كذلك، لا يكون لنا عليك اجتماع حتى نرجع إلى غابرنا ـ لعل الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم على ما دعوتنا، فعسى الله أن يجمعهم عليك. فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعزّ منك»[1].

وقد كان إقبال أهل المدينة على الإسلام جيداً إذا ما قورن بالمعارضة الشديدة التي واجهته في مكة، وبالتردد الواضح الذي لقيه من الجماعات العربية الأخرى، التي كان يعرض عليها الرسول نفسه طوال عشر سنين مضنية من الدعوة المستمرة[2]. فقد رجع أولئك النفر الستة ممن أسلموا إلى قومهم بالمدينة، وذكروا لهم رسول الله ﷺ. ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم[3].

وهكذا ومنذ ذلك الحين ظهرت قوة جديدة بالمدينة هي قوة المسلمين، التي بدأت تنمو تدريجياً، وتأخذ خطاً متميزاً بتصوراته وقيادته ينازع ويزاحم مراكز القوة القديمة. وقد أكدت بيعتا العقبة الأولى والثانية هذه الحقيقة وأعطتها واقعاً ملموساً، ثم كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره بها عنواناً لتمكن هذه القوة الجديدة، وتمركزها.

ويتبين لنا من العرض المقتضب السريع أن القوى الموجودة بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها هي:

أولاً: الجماعة الإسلامية متمثلة في مجموع المهاجرين والأنصار.

ثانياً: العناصر المدنية التي لم تسلم بعد.

ثالثاً: اليهود في تجمعاتهم بالمدينة وخارجها.

---

(١) المصدر السابق: السيرة الحلبية ٢/ ١٥٩.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في كل من: السيرة الحلبية ٢/ ١٥٣ وما بعدها، ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٩١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٩٣.

ونظرة في الوثيقة التي أبرمها الرسول ﷺ بعد مجيئه واستقراره في المدينة، بينه وبين أهل المدينة، تبين بوضوح مركز هذه القوى، وتضع إشارات واضحة على الاتجاه التي ستتخذه مجريات الصراع والزعامة في المدينة وما حولها في السنوات القادمة.

فقد أصبح ظاهراً أن الثقل الحقيقي في هذه القوى الثلاث هو ذلك الذي يمثله الرسول ﷺ. فقد جاء في نصوص الوثيقة ما يقرر بوضوح أن الرسول عليه السلام هو المرجع الذي تؤول إليه الكلمة الأخيرة فيما يشجر من خلاف: «**وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ**»[1]، وأيضاً: «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ»[2]. وقد وقّع الرسول ﷺ عهوداً وصحائف متعددة مع العديد من القوى المجاورة، وواضح أن بيعة العقبة الثانية كانت تمنح الرسول ﷺ الحماية الكاملة لتبليغ دعوته[3].

وإذا كان المسلمون من أهل المدينة قد أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من هذا الدين الجديد، وأصبح لا حدود لارتباطهم به وتضحياتهم من أجله، فإن هناك الكثير من العناصر المترددة من أهل المدينة، الذين أخذوا الأمر فيما يظهر على أنه نوع من الحلف المؤقت، أو الجوار العارض، الذي يمنحه القوي المستقر للمستضعف المهاجر، كما تقضي أخلاق الشهامة والمروءة وتقاليد الحماية والجوار المعروفة لدى العرب.

وقد كان أكثر الناس تضرراً بهذا التطور الطارئ في ميزان القوى بالمدينة بعد مجيء الرسول ﷺ إليها هو عبد الله بن أبي ابن سلول فقد جاء النبي إلى المدينة «وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه[4]، ما بقيت عليهم إلا خرزة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٥٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: طبعة السقا وآخرون ج: ٢: ٨٤ ـ ٨٥.
(٤) الضمير هنا عائدُ إلى عبد الله بن أبي بن سَلول (س).

واحدة»[1]. فكان عبد الله بن أبي ابن سلول يرى أن النبي ﷺ قد استلبه ملكاً[2]. أو كما عبر عن ذلك ابنه عبد الله في خطابه للرسول عليه السلام مفسراً موقفه: «إن أبي كانت أهل هذه البحيرة (أي المدينة)[3] اتفقوا على أن يتوجوه عليهم، فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك»[4].

وسوف نجد أن الدور الأساسي في قيادة حركة المنافقين وتوجيهها كان مرده إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وإلى هذه الملابسات، التي فرضها التغير الطارئ في ميزان القوى بالمدينة، والذي سببه ظهور الرسول بالمدينة واستتباب الدعوة الإسلامية وتمكنها فيها، وما نتج عن ذلك من تغير لمقاييس السيادة والزعامة في المجتمع الجديد. وهناك إلى جانب ابن أبي شخصيات قيادية أخرى حركها ضِدَّ الإسلامِ دوافعُ مقاربة.

هناك أبو عامر عَبْدُ عَمْرِو بن صَيْفِيّ بن النعمان، أحد بني ضُبَيْعَةَ بن زيد، من الأوس. شريف مطاع في قومه، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المُسُوحَ. فكان من شأن هذين السيدين[5] ـ كما أورد ابن إسحاق ـ «أن شقيا بشرفهما»[6] يعني أن الذي دفع هذين وأمثالهما إلى المعارضة ومضادة الله ورسوله هو زعامتهم وشرفهم، الذي ظنوا أو حسبوا أن الإسلام جاء ليسلبهم إياه.

وقد اختلف موقف أبي عامر الراهب ـ الذي لقبه الرسول ﷺ فيما بعد بالفاسق ـ اختلف موقفه عن موقف ابن أُبي. فقد كان الرجل ينشد في قومه مكانة دينية بترهبه ولبسه المسوح في الجاهلية، فكان في ظهور الرسالة الجديدة وصاحبها ﷺ، واستقرار الرسول بالمدينة ما وقف في سبيل أحلامه... روى ابن إسحاق أن أبا عامر أَتَى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة

---

(١) السيرة الحلبية ج: ٣: ٥٩٨.
(٢) المصدر السابق، الموضع السابق.
(٣) البَحْرَةُ والبُحَيْرَة: اسمان لمدينة النبي ﷺ (س).
(٤) المصدر السابق ج: ٣: ٥٩٩.
(٥) الضميرُ هنا عائدٌ إلى عبد الله بن أُبَيّ، وأَبِي عامر (س).
(٦) السيرة النبوية ط. السقا وآخرون ٢: ٢٣٤.

فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال: «**جئت بالحنيفية ، دين إبراهيم**» ، قال: فَأَنَا عليها. فقال له رسول الله ﷺ: «**إنك لست عليها**». قال: بَلَى ، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. قال: «**ما فعلتُ ، ولكني جئتُ بها بيضاء نقيّة**». قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً. . . »[1].

ويكشف الحوار في هذه القصة عن المكان الذي يريد فيه أبو عامر نفسه إزاء رسول الله ﷺ. لقد اتخذت حياة أبي عامر ومعارضته للإسلام صورة النفور والإعراض الظاهر الصريح. فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج عنهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، معادياً لله ورسوله ، فمات بها طريداً غريباً وحيداً.

وإذا كان عداء أبي عامر للإسلام وللرسول ﷺ قد اتخذ هذا المظهر الواضح الصريح ، فإن أمر ابن أُبي كان على غير ذلك. فهو كان يرى أن «رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أَبَوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن. »[2].

وسوف نتتبع في هذا الفصل مظاهر هذا العداء المستتر الذي سلكه عبد الله بن أبي كما تعرضه السيرة ، فهو يجسم نموذجاً للشخص المتردد الذي ضاع بين تطلعاته إلى ملك سليب ، وإحجامه عن الانسجام مع البناء الجديد في المجتمع المسلم الناشئ.

فذلك التطلع إلى الرئاسة باستمرار منع عبد الله بن أُبي من استيعاب أبعاد الدعوة الجديدة ، التي جاءت في أول الأمر تلتمس حماية وجواراً لدى أهل يثرب ، فما برحت أن استخلصتهم لنفسها جنوداً وأنصاراً. وبدلاً من أن يمثل شأن حماية هذه الدعوة جزءاً من التحرك الجانبي في الحياة السياسية والاجتماعية ليثرب ، أصبحوا هم جزءاً من هذه الدعوة؛ ما زالت به حتى اتخذته منطلقاً إلى الاستقرار والانتصار.

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية: ج: ٤٢٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢: ٤٢٣.

وبينما كانت جموع المهتدين من الأنصار وأبنائهم يحلقون في أجواء الوحي والنبوة ، ويعيشون أبعاد الرسالة الإلهية بمسؤولياتها الكاملة في فناء وإيثار ، كان عبد الله بن أُبي ينظر إلى محمد ﷺ وأصحابه على أنهم فئة طارئة ، جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش سوف ينتهي بانتصار محمد عليهم أو بانتصارهم عليه ، أو بصورة أخرى من صور الحل الذي ينجم عنه انتهاء هذه القوة الطارئة وعودة المياه إلى مجاريها ، وعودة ابن أُبي إلى رئاسته ومكانته ، وربما حصوله على التاج الذي شغل قومه عن إعداده أمر الإسلام والدعوة إليه وحمايته!؟

وهناك العديد من المواقف والأقوال التي أثرت عن عبد الله بن أُبي ابن سلول تؤكد هذا المعنى ، وتدل عليه:

قال ابن إسحاق: «ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من شَكْوٍ أصابه ، على حمار عليه إِكَافٌ.. فمر بعبد الله بن أُبي وهو في ظل مزاحم أطمه[1]، وحوله رجال من قومه. فلما رآه الرسول عليه السلام تَذَمَّم[2] أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ، ثم جلس قليلاً فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر ، قال: وهو (أي عبد الله بن أُبي) زَامٌّ[3] لا يتكلم ، حتى إذا فرِغ رسول الله ﷺ من مقالته قال: يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك إن كان حقاً. فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تَغُتَّهُ[4] به ، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه!»[5].

وروى الدارقطني مسنداً «أن رسول الله ﷺ مر على جماعة فيهم عبد الله بن

---

(١) وهو في ظِلِّ مُزَاحِمٍ أُطُمِهِ: أي مستظلاً بجدار حِصْنِهِ المسمّى «مزاحم». فالأُطُمُ، في اللغة: الحصنُ. و«مزاحم» اسمُ حصنٍ لعبد الله بن أُبيّ. (س).

(٢) تذمم: استحيا وكره. (س).

(٣) زامٌّ: مستكبرٌ رافعٌ أنفَه. (س).

(٤) لاتغته: لا تزعجه به. (س).

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٤٢٥.

أُبي فسلم عليهم ، ثم وَلَّى ، فقال عبد الله: لقد عتا أمْرُ ابن أبي كبشة في هذه البلاد!»[1].

ففي هذين النصين يظهر عدم إيمان ابن أبي بما جاء به الرسول ﷺ ، فهو لا يدري إن كان حقاً أم لا ، وهو يرى أن غشيان الناس به هو إثقال عليهم. ولا يخفى ما في مواجهة الرسول عليه السلام بتلك اللهجة «يا هذا!» وقوله عنه: «لقد عتا أمرُ ابن أبي كبشة» ، وعدم ذكره بصفة النبوة ـ لا يخفى ما في ذلك من الاستخفاف به ﷺ وبأمر الإسلام والمسلمين.

وإذا كان إيمان قوم ابن أُبي بالرسول واتباعهم له جعله يخضع لهذا الأمر الواقع ويقبل به ، فهو لا ينسى أن يحاول باستمرار أن يحتفظ لنفسه بمكانتها التي يراها لها. فقد كان لعبد الله بن أُبي ابن سلول «مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله بن أُبي فقال: أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به؛ فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا له. ثم يجلس»[2] وواضح أن قصده من ذلك ـ حين لم يكن صادقاً فيه كل الصدق ـ أن يضع نفسه في مكان ومقام يظهر معه تأييد المسلمين من الأنصار وطاعتهم للرسول عليه السلام ، وكأنهما صادران عن توجيه منه. وهذا تأكيد وتثبيت لمكانته ومركزه هو في الدرجة الأولى ، يحاول حفظها حتى لا تفلت من يده ، وحتى لا يضيع في غمرة النسيان ، وفي دورة الأحداث.

ولعل أبرز موقف يظهر تصور ابن أبي لأمر الرسول والمهاجرين والإسلام كله ، ما كان منه غداة مرجع الرسول عليه السلام من غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست للهجرة ، وحدثت المنافرة بين أجير عمر وأحد موالي الأنصار... فغضب عبد الله بن أُبي وعنده رهط من قومه فقال: «أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا! والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش إلا

---

(١) السيرة الحلبية: ٣/ ٥٩٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٦١٨ ـ ٦١٩.

كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْكَ، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم منهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم»[1].

وتزيد بعض الروايات قوله: «ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعني النبي ﷺ) فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا حتى ينفضوا من عند محمد»[2].

وعبارات ابن أبي هنا أوضح من أن تحتاج تعليقاً يوضحها ليظهر رأيه الصريح في الأمر كله، والذي كشف عنه هنا في لحظة غضب غالبة.

بقي أن نشير هنا إلى واقعتين أُخْرَيَيْنِ تكشفان تصور ابن أبي لموقفه وللدوافع التي كانت توجه تصرفاته. أما الأولى: فقد كانت في وقعة أحد، فقد كان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، يكره الخروج لملاقاة قريش، ويفضل انتظارهم بالمدينة. بينما كان رأي أغلب المسلمين الخروج، خصوصاً من تخلف منهم عن بدر، تكفيراً عن تخلفهم ذلك وشوقاً إلى الجهاد وقتال المشركين، فغلبوا الرسول ﷺ على الخروج، فخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة. حتى إذا كان بالشَّوْطِ، موضع بين المدينة وأحد، انخذَلَ عنه عبد الله بن أُبي بثلث الناس، وقال: «أطاعهم وعصاني. ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس» فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق[3].

فهو ما زال هنا يتصدر للقيادة، ويتخذ المواقف التي يحاول أن يحفظ بها لنفسه مكانة السيد المطاع، ويلقي باللوم على الرسول ﷺ لأنه عصاه وأطاع الناس. ثم هو لا يستبين الهدف من الصراع الدائر، ـ وربما كانت حجته في البقاء بالمدينة هو أن يقاتل عن مبرر آخر، غير مبرّر الانتصار للإسلام

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا وآخرون: ج: ٣: ٧٥٨.

(٢) السيرة الحلبية: ٥٩٦.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

وللنبي ﷺ، أعني مبرر الدفاع عن داره ودار قومه المدينة. بل هو يتساءل علناً: «ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!» وقد تكرر منه ما يشبه هذا في غزوة تبوك[1].

أما الواقعة الثانية: فكانت حين حاصر النبي ﷺ بني قينقاع حتى نزلوا على حكمه. فقام عبد الله بن أُبي ابن سلول ـ حين أمكن الله منهم ـ قال: يا محمد، أَحْسِنْ في موالِيَّ، وكانوا حلفاء الخزرج. فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي. فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «**أرسلني**». وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً[2]. ثم قال: «**ويحك أرسلني**». قال: لا. والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: «**هم لك**»[3].

وهذه الحادثة تظهر مدى تعلقه بأعداء الإسلام من اليهود، وموادته لهم. فهو يرى في القضاء عليهم عملية تقليم لأظافره، وتحطيم لنفوذه، فهم أنصاره ومواليه يحمونه من الأحمر والأسود ـ على حد قوله ـ وهو لم يقنع بأن يربط مصيره بمصير الرسول والإسلام والمسلمين، ولم تكن لديه الثقة في انتصارهم وغلبتهم، فهو لذلك يحذر الدوائر، ويحتاط لها، ويذهب في ذلك إلى حد التدخل لحماية أعداء الله ورسوله من اليهود.

وقد أسهبنا في إيراد هذه الوقائع والأقوال مما صدر عن ابن أبي أو تحرك به، وقام عليه كشخصية أساسية كان مدار حركة المنافقين ورأسهم الذي يلوذون به، ويأتمرون بأمره؛ لتتضح لنا الدوافع الحقيقية لدوره الذي لعبه في حياته التي مضى فيها إلى آخر لحظة منافقاً عاتي النفاق، سادر الضلال. ونستطيع أن نرسم لمحة عامة لاتجاه مواقفه في الآتي:

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٩٤٦.

(٢) ظُلَلاً: أي سحابات من غضبٍ. (س).

(٣) السيرة الحلبية: ٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

فهو كان يرى أن الرسول عليه السلام قد استلبه ملكاً بقدومه إلى المدينة، واستقراره بها، فمنعه حسده للنبي ﷺ وتطلعه لمنصب الرئاسة من استيعاب الدعوة الإسلامية، وإدراك أبعادها، فكان ينظر إلى النبي ﷺ وأصحابه على أنهم فئة طارئة، جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش سوف ينتهي بصورة أو أخرى، وعليه ـ حتى حين تحقق ذلك ـ أن يحتفظ لنفسه بمقومات الرئاسة والزعامة. ولم يقنع أن يربط مصيره بالإسلام والمسلمين لعدم إيمانه وضعف يقينه، فكان يحذر الدوائر، ويحتاط لها، ويسلك إلى ذلك ما يراه ضماناً لزعامته، بما في ذلك موالاة أعداء المسلمين من اليهود، والارتباط بهم، وتأييدهم في السر والعلن.

كان عبد الله بن أُبي هو رأس هذه الحركة التي آثرت أن تحارب الإسلام من الداخل، حركة القوى المترددة التي كانت تتربص برسول الله ﷺ الدوائر، وتكن له العداء، وتحاربه بكل أسلوب خفي، ولكنها لا تجرؤ على المجاهرة بالعداء، لأن الإسلام استطاع بامتلاكه لقلوب الأنصار وأرواحهم أن يحدث خلخلة حقيقية في ذلك المجتمع، وأن يضم إلى صفوفه الأكثرية الغالبة من أهل الشوكة، وأن يمزج بين أنصاره من مختلف القبائل والبيوتات، فلم يصفُ للمعارضة سند ترتكز عليه، وكانت في موقفها المتردد الخانس تصدر عن إدراك حقيقي لقوة الإسلام، وتغلغله في أوساطها... وسنحاول في الفصل التالي أن نرصد تحركات المنافقين في المجتمع الإسلامي الأول، وأن نتتبع ببعض التفصيل ـ وفي النطاق الذي تتيحه لنا مصادرنا المحدودة ـ أساليبَهم التي قاموا بها في وجه الدعوة الإسلامية.

* * *

الفصل الرابع
المظاهر العَمليّة لتحرّكات المنَافقيْن في المدينَة

لقد تباينت تحركات المنافقين في مراحل التطور الأولى للمجتمع الإسلامي الأول، ما بين محاولات توهين المسلمين والاستهزاء بهم وإشاعة الفوضى بينهم، تارة بخذلان المجاهدين والإرجاف بهم وتقوية الأعداء عليهم، وتارة بترويج الإشاعة وقالة السوء في المجتمع المسلم، والقصد بذلك إلى بيت النبوة نفسه. وأخرى بإظهار التكذيب للنبي ﷺ واستهدافه بالعداء، حتى لقد بلغ بهم الأمر محاولة قتله ﷺ، ومع ذلك كله موالاة اليهود وموادتهم وتحريضهم على الرسول والمسلمين.

وأول ما يطالعنا من إرجاف المنافقين بالرسول ﷺ أنه بعد منصرف رسول الله ﷺ من غزوة بدر منتصراً، أرسل عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة مبشرين لأهل المدينة بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين. وجاء رجل من المنافقين يقول لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده أبداً. قد قتل محمد وغالب أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب!! قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي لبابة وسألته عما أسره له الرجل، فأخبرني بما أخبره به. فقلت: أحقاً ما تقول؟ قال: أي والله، حق ما أقول يا بني. فقويت نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ، لنقدمنك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم فيضرب عنقك. فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه[1].

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ٤٣٧.

وقد كان هذا النصر الذي حققه الله لرسوله وللمؤمنين في وقعة بدر منطلقاً جديداً في تاريخ الدعوة الإسلامية، دعم وجودها، وأرسى مكانتها، وجعل أعداءها يحسبون لها حساباً جديداً... فهناك من استكبر وأظهر الكيد والعداء كما كان من شأن يهود بني قينقاع، وهناك آخرون ممن استشعر قوة الإسلام، وداخلتهم هيبة المسلمين، فتقبلوا ذلك على ضغن ونفاق، ومنذ ذلك الحين بدأت مسيرة النفاق في منطلقها الخبيث، حتى أظهر الله دينه وأعلى كلمته وأعزّ جنده.

وقد ألمحنا فيما سبق أنه من حين هاجر النبي ﷺ؛ صار الناس ثلاثة أصناف: إما مؤمن، وإما كافر مظهر لكفره، وإما منافق. وقد قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق. وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار، فإن مكة كانت الكفار مستولين عليها، فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن، ليس هناك داع يدعو إلى النفاق. والمدينة من بها من أهل الشوكة[1]، فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار، فمن لم يظهر الإيمان آذوه، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن[2].

ولكنهم كلما وجدوا فرصة لإظهار ما يعتمل في صدورهم من الضغن والفساد أظهروه وتنفسوا به. ولم يبدر من ذلك ما هو ذو قيمة حتى حاصر الرسول ﷺ يهود بني قينقاع. فإنه «لما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان رسول الله ﷺ عاهدهم هم وبني قريظة ألا يحاربوه، وأن لا يظاهروا عليه عدوه.

وقد دعاهم الرسول إلى الإسلام فأعرضوا عنه، وتنمروا له، وكان مما قالوه: يا محمد، إنك تُرَى أنا قومك؟! ولا يغرنك أنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبتَ لهم فرصةً، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[3]. فنبذ إليهم النبي ﷺ وآذنهم بالحرب، فتحصنوا في حصونهم،

---

(١) كذا في الأصل، ويبد أن فيه سقطاً، فليُتأمل. (س).

(٢) ابن تيمية: الإيمان: ١١٩.

(٣) السيرة الحلبية: ٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨، ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

فسار إليهم فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، وأجلاهم ﷺ عن المدينة.

وكان يهود بني قينقاع حلفاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه وعبد الله بن أبي ابن سلول. فلما غضب المسلمون على بني قينقاع لغدرهم ، وقال لهم ﷺ: «**ما على هذا أقررناهم**» تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم ، ولكن عبد الله بن أُبي تشبث بهذا الحلف.. ليس هذا فحسب ، بل إنه لما نزلت بنو قينقاع من حصونهم ، وأمر رسول الله ﷺ بهم فكتفوا ، وقدَّمهم للقتل ، كلَّمه فيهم عبد الله بن أبي ، وألحَّ عليه إلحاحاً شديداً قائلاً: إنهم عزي وأنا امرؤ أخشى الدوائر.. وقد سبقت الإشارة إلى هذا بشيء من التفصيل[1].

فكان موقف ابن أُبي هذا ، وخلافه على الرسول ﷺ والمسلمين بحمايته لأعدائهم وتشبثه بحلفهم؛ من مظاهر النفاق المستعلن ، الذي كشف عن هذا الحلف الوثيق بين المنافقين واليهود ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ، وسوف تتكشف مظاهر عديدة لهذا التحالف فيما بعد.

ثم كان يوم أُحد في شوال سنة ثلاث للهجرة. اليوم الذي يصفه ابن إسحاق أنه «يوم بلاء وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ، ومحن به المنافقين ممن كان يظهر الإيمان بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر في قلبه»[2].

وقد خرج الرسول ﷺ إلى لقاء المشركين في أُحد ، وكان رأيه ورأي أكابر المهاجرين والأنصار أن يقيموا بالمدينة ويتحصنوا بها ولا يخرجوا إليهم ـ وكان ذلك رأي ابن أُبي أيضاً ـ ولكن كان رأي أغلب المسلمين أن يخرجوا لملاقاة عدوهم خارج المدينة ، فانقاد الرسول ﷺ لهم وخرج بهم.. وأدلج الرسول ﷺ في السحر ، فحانت صلاة الصبح «بالشوط» ـ حائط بين المدينة وأحد ـ ومن ذلك المكان رجع عبد الله بن أُبي ابن سلول ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمئة رجل وهو يقول: «عصاني وأطاع الوِلْدَانَ ومن لا رأي

---

(١) المصدر السابق ، وانظر ما سبق ص: ٤١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ج: ٣/ ٦١٩.

له ، سيعلم! ما ندري علام نقتل أنفسنا ، ارجعوا أيها الناس». فرجعوا[1].

وقد اعتذر هو وأصحابه عن رجوعهم أنهم لا يعلمون أنه سيكون قتال ، وهو عذر انتحلوه للتغطية على موقفهم الحقيقي ، الذي ينبع من معارضتهم الأصلية لقوة الإسلام ، التي بدأت تفرض نفسها على المدينة وأنحائها بعد انتصار المسلمين في بدر وإجلائهم لبني قينقاع.. وقد كان ابن أُبي يتصور أنه بتخليه عن المسلمين في مسيرهم إلى أُحد سيهز من موقفهم ، وَسَيَفُتُّ في عضدهم ، وسيستعيد لنفسه مركزه الذي يمكنه من السيطرة على المدينة ، وأن تكون له فيها وفي شؤونها في السلم والحرب الكلمة الأولى.. وفي الكلمة التي نطق بها يومئذ: «والله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا» كشف لحقيقة موقفه الذي ليس فيه للإسلام ونصرته نصيب ولو ضئيل جداً.

وقد تعرض المسلمون في (أُحد) لهزة عنيفة ، ونال منهم عدوهم ، وشجّ وجه رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وكان في المسلمين قتلى كثير... ولما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة «أظهر المنافقون واليهود» ـ كما تقول السيرة ـ «الشماتة والسرور» وصاروا يظهرون أقبح القول ، من ذلك قولهم: «ما محمد إلا طالب ملك!! ما أُصيب بمثل هذا نبي قط ، أُصيب في بدنه وأُصيب في أصحابه». ويقولون: «لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل»[2].

وليس أبلغ في الطعن في رسول الله ﷺ من قولهم هذا.. وهو أشبه بهم وبقلوبهم ، يريدون بذلك أن يصوروا أن النبي ﷺ طالب ملك لا أكثر... وإذا كان الأمر كذلك فأهل الدار أولى به.. ولكن الإسلام كان قد استحكم واشتد عوده وقويت شوكة المسلمين ، فأدت أقاويل هؤلاء من المنافقين إلى كشفهم وقيام المسلمين عليهم.

فقد استأذن عمر بن الخطاب النبي ﷺ في قتلهم ، فقال ﷺ: «**أليس**

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ، ط. السقا وآخرون ، ج: ٣: ٦٨ ، السيرة الحلبية ٢: ٤٩٤.

(٢) السيرة الحلبية: ٢/ ٥٤٩.

يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى، ولكن تعوذاً من السيف، فقد بان أمرهم، وأظهر الله أضغانهم، فقال ﷺ: **«نُهِيتُ عن قتل مَنْ أظهر ذلك»**[1].

وافتضح ابن أُبي في هذه الغزوة لتخلفه وانخذاله عن النبي ﷺ. وقد كانت عادته إذا جلس الرسول ﷺ يوم الجمعة على المنبر قام فقال: «أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به وأعزكم، فانصروه وعَزِّرُوه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس» فبعد (أحد) أراد أن يفعل كذلك، فلما قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحيهِ، وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت[2].

وكان هذا من مظاهر الاستياء العام العلنية التي واجه بها المسلمون ابن أُبي، وقبل ذلك دفعه أحد الصحابة دفعة شديدة شجّ بها وجهه عند محاولته الدخول على الرسول ﷺ؛ ليشفع في مواليه من بني قينقاع، ويطلب إقرارهم[3]. وحتى يظهر الرسول ﷺ سخطه وسخط المسلمين على ما قام به المنافقون في أُحد، فإنه لما خرج صبيحة قدومه من أُحد خَلْفَ قريش إرهاباً لهم أذّن مؤذّنه ألا يخرج إلا من حضر أُحداً.

وكان هذا الموقف طرحاً لهذه الطائفة، وتقليلاً لدورها وشأنها، وإظهاراً لغناء الإسلام عنها؛ كرد فعل مباشر لموقف عبد الله بن أُبي وصحبه بسبب رجوعهم من «الشوط»، وتخليهم عن مواجهة المشركين في أُحد.

أما الموقف الثاني الذي أظهر تمالؤ المنافقين مع أعداء الإسلام من يهود، فكان في مراسلتهم لبني النضير، وتحريضهم إياهم على رسول الله ﷺ. وذلك أنه لما همَّ بنو النضير بطرح الرحى على رسول الله ﷺ مستهدفين قتله... ونذر بهم الرسول ﷺ أرسل إليهم محمد بن مسلمة رضي الله تعالى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣/ ٦١٨ ـ ٦١٩.

(٣) السيرة الحلبية: ٢ ـ ٤١٨.

عنه يأمرهم بالخروج، ويؤجلهم عشراً، فمن رُئي منهم بعد ذلك ضربت عنقه.

فأرسل اليهود في إحضار الإبل للجلاء، فبعث إليهم المنافقون: «أن لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم. إن قوتلتم فلكم علينا النصر، وإن أخرجتم فلن نتخلف عنكم»[1] وأرسل إليهم عبد الله بن أبي ابن سلول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان»[2].

وكان ابن أُبي يرسل إليهم بذلك بعد أن فرض المسلمون عليهم الحصار يقول: اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم فخذلهم ولم يحصل منه شيء[3].

ونزل اليهود من حصونهم بعد أن اتفقوا مع الرسول ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب... وتذكر الروايات أن المنافقين «حزنوا لإجلائهم وخروجهم أشد الحزن»[4] وقد نزل القرآن في شأن هؤلاء مبيناً ما كان من أمرهم كاشفاً دورهم ذلك، يقول سبحانه وتعالى في سورة الحشر:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٦٨٣.

(٢) المصدر السابق. السيرة الحلبية ٢/ ٥٦١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٦٨٣، ويذكر أن الذين راسلوهم هم: عبد الله بن أبي، ووديعة، ومالك بن أبي قَوْقَل، وسويد، وداعس. وانظر كذلك: السيرة الحلبية: ٢/ ٥٦١.

(٤) السيرة الحلبية: ٢/ ٥٦٦.

وتتابعت بعد ذلك مواقف المنافقين في شغبهم وكيدهم، كلها تؤكد هذا المنطلق الذي انتهجه ابن أُبي بتلك الدوافع التي أشرنا إليها من قبل، ما بين إرجاف بالمسلمين وتوهين لهم، لا يخفون شيئاً من ذلك كلما سنحت لهم الفرصة. فعندما غدرت عَضَلُ والقَارَةُ، وهم رهط من الهُونِ بن خزيمة بن مدركة، بالنفر الستة الذين أرسلهم معهم الرسول ﷺ؛ ليفقهوهم في الدين، ويعلموهم القرآن، فقتلوا منهم مَرْثَدَ بن أبي مَرْثَد الغنوي، وخالد بن البُكَيْرِ الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعبد الله بن طارق، وباعوا من قريش خُبَيْبَ بن عَدِيّ، وزيد بن الدَّثِنَّة، باعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة[1]، وجد المنافقون في ذلك مجالاً للكلام والإفصاح عما في نفوسهم. قال ابن عباس: لما أصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم بالرَّجِيع، قال رجال من المنافقين: «يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا!! لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم!»[2].

فهم لا يجدون في تصورهم الخالي من نفحات الإيمان الصادق مبرراً لمثل تلك التضحية، التي ذهب فيها هؤلاء الدعاة الستة... ولا يتصورون كيف يمكن أن يقدم المرء نفسه للهلاك هكذا ـ حسب قولهم ـ إلا أن يكون من المفتونين ممن لا عقل لهم.. وواضح ما يهدف إليه مثل هذا القول الخبيث من تثبيط غيرهم من المسلمين عن مثل تلك المهام، التي تحفها الأخطار، ويكتنفها غدر الأعراب.

وقد ذكر ابن عباس أن الآيات ٢٠٤ ـ ٢٠٧ من سورة البقرة نزلت في هؤلاء المنافقين الذين قالوا هذا القول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾... الآيات[3].

وتتداخل مواقف المنافقين في خط المعارضة الذي انتهجوه وارتضوه

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣ ـ ٦٧ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق: ٣ ـ ٦٧١.
(٣) المصدر السابق: ٣ ـ ٦٧١ ـ ٦٧٢.

لأنفسهم ، ما بين نكوص عن الجهاد وتوهين للمسلمين وتحريض لأعداء الإسلام من يهود وغيرهم ، ومؤازرتهم على عداوة الرسول والإسلام ، بل بلغت في بعض المواقف إلى محاولة الاعتداء على الرسول ﷺ في شخصه ، ومحاولة قتله.

ونمضي في تتبع مواقفهم كما وردت في السيرة في تسلسلها التاريخي ، ففي غزوة الخندق ، في شوال سنة خمس من الهجرة[1] ، وهي غزوة الأحزاب التي ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين ، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما يبطنه أهل النفاق والشقاق المعاندين. وفيها تحزبت قريش مع أحلافها من غطفان وغيرهم بتحريض من اليهود ، وأجمعوا على غزو المسلمين بالمدينة ، فضرب الرسول ﷺ الخندق حول المدينة ، واستعد لقتالهم.

واجتهد المسلمون في حفر الخندق وتهيئته ، فعمل فيه رسول الله ﷺ للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأَبوا. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة في الخير ، واحتساباً له[2].

وظهر في هذه الأثناء تخاذل المنافقين ونكوصهم ، «فتباطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ، ولا إذن»[3].

وعندما بشر الرسول ﷺ أصحابه أن الله سيفتح عليهم اليمن والشام وفارس ، قال جمع من المنافقين ـ منهم معتب بن قشير في بعض الأقوال ـ:

---

(١) المصدر السابق: ٦٩٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ ـ ٧٠١ ، السيرة الحلبية ٢ ـ ٦٣٣.

(٣) السيرة الحلبية: ٢ ـ ٦٣٣ ، ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ ـ ٧٠١.

«ألا تعجبون من محمد؟! يمنّيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وإنما أنتم تحفرون الخندق من الفَرَقِ (الخوف) لا تستطيعون أن تبرزوا»[1].

ولما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، اشتد الأمر على المسلمين، ونجم النفاق من المنافقين، حتى قال قائلهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً..»[2].

وتتابع المنافقون على التسلل والانسحاب من الخندق إلى بيوتهم، وجعلوا يستأذنون ويقولون: إن بيوتنا عورة من العدو؛ لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة، فأذن لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا... فكان رسول الله ﷺ يأذن لهم، حتى إنه لم يبق معه عليه السلام ليلة منصرف الأحزاب ورجوعهم عن المدينة إلا ثلاثمئة..[3].

وقد أصبح موقف التخلف عن نصرة الرسول ﷺ، وعدم الصدق في الجهاد، علامة من علامات النفاق الظاهرة تتكرر كلما عرضت غزوة أو سرية... إلا أنهم تحولوا بعد هذه المرحلة إلى أسلوب جديد، قصد فيه أصحابه إلى القيام بدور حاسم ضد الجماعة الإسلامية، ولكن جاء ذلك بعد فوات الأوان، وبعد أن زال عن المنافقين كل مبرر لتحقيق مثل تلك الخطوة.

حدث ذلك في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة (٦) للهجرة[4]، «وخرج مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها ـ منهم عبد الله بن أبي ابن سلول وزيد بن اللُّصَيْتِ، ليست

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ ـ ٦٣٥.
(٢) المصدر السابق: ٢ ـ ٦٤٠، ابن هشام: السيرة النبوية ٣ ـ ٧٠٦.
(٣) المصدر السابق: ٣ ـ ٧٠٧ السيرة النبوية: ٢ ـ ٦٥١.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٣ ـ ٧٥٧ وهو الصواب، وعند غيره أنها سنة خمس قبل الأحزاب.

لهم رغبة في الجهاد ـ وإنما غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة»[1] ثم بعد انقضاء الحرب وهم على ماء المريسيع ، اختصم أجير لعمر بن الخطاب كان يقود له فرسه يقال له: جَهْجَاه ، مع سنان بن فروة من حلفاء الخزرج (قيل: هو حليف عمرو بن عمرو ، وقيل: حليف عبد الله بن أُبي). فضرب أجيرُ عمر حليفَ الخزرج فسال الدم فنادى سنان: يا للأنصار! ، ونادى جهجاه: يا للمهاجرين ، فشهر الفريقان السلاح ، وكادت تكون فتنة عظيمة ، لولا أن الرسول ﷺ حسم خلافهم ذلك.. ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه ، فسكنت الفتنة ، وانطفأت نائرة الحرب[2].

وتذكر الروايات أنه عند تخاصم الرجلين «غضب عبد الله بن أُبي ، وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن أرقم رضي الله عنه. وهو غلام حدث السن. فقال عبد الله بن أبي: والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا! والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش[3] هؤلاء إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ ، والله لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ؛ يعني بالأعز نفسه والأذل النبي ﷺ»[4].

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا فقتلتم دونه ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد ﷺ[5].

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ ـ ٥٨٤.

(٢) المصدر السابق: ٢ ـ ٥٩٥، ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ ـ ٧٥٨.

(٣) جلابيب قريش: لقبٌ أطلق على المهاجرين من مكة إلى المدينة. (س).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ ـ ٧٥٨.

(٥) السيرة الحلبية: ٢: ٥٩٦.

وقد أعلن ابن أبي في كلامه هذا عداءه الخفي الذي كان يحبسه في نفسه، ويكتمه طوال السنين الست السابقة... فانفجر به في لحظة حسد وغضب وضغينة غالبة... فها هو يجد نفسه مجرد تابع في جيش منتصر يصرف أمره الرسول ﷺ، فهو الذي يوزع الفيء ويقسمه بما أراه الله سبحانه وتعالى.. ويعرس على جويرية بنت الحارث، سيد قومها... ولا يكون لابن أبي من الرئاسة والتصرف شيء مما كان يراه حقاً له لا ينبغي أن ينازع فيه.. وتتجمع كل تلك الجوامع المترسبة في نفسه النافرة الضاغنة؛ لتنفجر في لحظة غضب، التمس لها ابن أبي سبباً ليظهرها في تلك المنافرة العابرة بين مولى وأجير، فإذا به يعطي في كلماته التي قالها تصويراً دقيقاً للموقف كما يراه، وخطة واضحة متكاملة لإذلال المسلمين وتحويلهم عن المدينة، حتى يستعيد هو لنفسه جاهَهُ الضائع... فهو يقترح على قومه أن يتخلوا عن مناصرة الرسول ﷺ ويأمرهم بعدم الإنفاق على المسلمين؛ ليتفرقوا ويطلبوا مأوى آخر غير المدينة.

وقد سمع كلامَ ابنِ أُبَيٍّ زيدُ بن أرقم رضي الله عنه، فمشى به إلى الرسول ﷺ فأخبره الخبر، وعنده نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب. وكره رسول الله ﷺ مقالة ابن أبي، واستكثر أن يقول ذلك.

وعندما رأى عمر غَضَبَ رسول الله ﷺ التمس منه أن يدعه يقتل ابن أبي، أو يأمر محمد بن مسلمة أو عباد بن بشر بقتله... فقال الرسول ﷺ: «**كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه؟! ولكن أَذِّنْ بالرحيل**». وذلك لما شاع الخبر في الناس، ولم يكن لهم حديث غيره فارتحل الرسول ﷺ بالناس في ساعة لم يكن يرحل فيها... وجاءه أسيد بن حضير رضي الله عنه فحياه بتحية النبوة، وقال: يا نبي الله، لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. فقال له رسول الله ﷺ: «**أما بلغك ما قال صاحبكم؟** قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد الله بن أُبي بن سلول**». قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ**».

قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي، فإنَّهُ لَيَرى أنك استلبته ملكاً»[1].

وسار النبي ﷺ بالناس سيراً حثيثاً يومهم ذاك وليلتهم وصدر ذلك اليوم التالي حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس. فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ﷺ ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي ابن سلول..[2].

وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبي ﷺ ورده على زيد بن أرقم إلى ابن أبي فقال له: إن قلت ما نقل عنك، فأخبر النبي به فليستغفر لك، ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك. وإن كنت لم تقله فائت رسول الله ﷺ فاعتذر له واحلف له ما قلته، فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً..[3].

وقد كان كلام ابن أبي مثار سخط المسلمين وغضبهم، وكان أشدهم عليه ابنه عبد الله. فإنه لما بلغه مقالة عمر عن قتل أبيه جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني أن أحمل لك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرَّ بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**». فقال عبد الله: يا رسول الله، إن أَبِي كانت أهل هذه البحيرة اتفقوا على أن يتوجوه عليهم، فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك، ومعه قوم من المنافقين يطيفون به ويذكرونه أموراً قد غلب الله عليها»[4].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: تحقيق السقا وآخرون: ج: ٣: ٣٠٤.
(٢) المصدر السابق ج: ٣: ٣٠٤.
(٣) السيرة الحلبية ج: ٣: ٥٩٧، وابن هشام: ج: ٣: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٤) السيرة الحلبية: ٢: ٥٩٩.

ولما انتهىٰ رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدم عبد الله رضي الله عنه ابن عبد الله بن أُبي ، وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه. فأناخ به ثم وطئ على يد راحلته. فقال أبوه: ما تريد يا لكع؟ فقال: والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز ، حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، لتعلم أيضاً الأعز من الأذل ، أنت أو رسول الله ﷺ. فصار يقول: لأَنَا أذلّ من الصبيان. لأَنَا أذلّ من النساء. حتى جاء رسول الله ﷺ وقال: «**خلِّ عن أبيك**». فخلّى عنه[1].

وأنزل الله تعالى سورة المنافقين ، وصار قوم عبد الله بن أُبي ، عند نزول سورة «المنافقين» يعاتبونه ويعنفونه. ولما بلغه ﷺ بغض قومه له ومعاتبتهم إياه. قال عليه السلام لعمر: «**كَيْفَ تَرَى يا عمر؟ إني واللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لأَرْعَدَتْ لَهُ أُنُوفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ..**»[2]. ولكن ابن أبي استمر على نفاقه وتعنته ، ولما نزلت سورة المنافقين بتكذيبه قال له أصحابه: اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن آمن فآمَنْتُ ، وآمرتموني أن أعطي زكاة أموالي فأعطيت ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد؟!»[3].

وما كانت تنطفئ نائرة هذه الفتنة حتى أثار المنافقون فتنة أخرى أشد وأدهى ، كانت هذه المرة من نوع آخر ، وإن كانت في زمان حدوثها غير بعيدة عن سابقتها ، فقد بدأت ملامحها في رحلة العودة من غزوة بني المصطلق. وتلك الفتنة هي ما عرف في التاريخ الإسلامي «بحديث الإفك». وهي الحملة الثانية من نوعها التي استهدفت رسول الله ﷺ في شخصه وأهله من قبل المنافقين واليهود.

---

(١) السيرة الحلبية ج: ٢: ٦٠٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: طبعة السقا وآخرون: ج: ٣/ ٣٠٥، السيرة الحلبية ج: ٣/ ٦٠٣.

(٣) السيرة الحلبية ج: ٢/ ٦٠٣.

كانت الحملة الأولى في ذي القعدة من سنة خمس، عندما تزوج النبي ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة متبناه زيد بن حارثة. فعند ذلك قام المنافقون في المدينة بفتنة عظيمة، وأثاروا الضجة حول قصة هذا الزواج، وأيدهم وقوى ساعدهم من الخارج اليهود والمشركون، وجاؤوا بالأكاذيب والافتراءات على النبي ﷺ، وقالوا: هذا محمد وقع في غرام زوجة متبناه لما نظر إليها فجأة، وإن زيداً طلقها له ليتزوجها، إلى غير ذلك من أقاويلهم المتجنية الخبيثة، وأبدوا وأعادوا في نشر هذه الدعايات والأقاويل، حتى لم يسلم منها الكثير من المسلمين أنفسهم، وتركت طابعها على الكثير من الرّوايات التي ساقها المحدثون والمفسرون عن زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها، ليس هذا محل الخوض في تفنيدها[1].

والذي يهمنا هنا في هذه الحادثة أن نشير إلى نقطة واحدة جديرة أن تستلفت نظر الباحث في دور المنافقين. فقد ظهر أنهم كانوا يكونون رأياً عاماً كان الرسول ﷺ نفسُه يخشاه، ويحسب له حساباً، يصوره لنا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. والمقصود بالناس هنا اليهود والمنافقين أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه. وقد ورد في الروايات أنهم قالوا ذلك[2].

وقد حسم الله سبحانه وتعالى ذلك كله بما شرعه لنبيه ﷺ من زواجه لزينب بعد أن طلقها زيد: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) انظر حول هذا الموضوع، عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، وكذلك كتاب حياة محمد، للدكتور محمد حسنين هيكل: الفصل السابع عشر (ص: ٣١٥ ـ ٣٢٦) الذي ناقش فيه الموضوع ببعض التفصيل، على أن لنا على الكتاب في مجمله بعض التحفظات.

(٢) الواحدي: أسباب النزول: ٣٧٠، السيرة الحلبية ٢ ـ ٤٨٥.

وهذه المشاعر التي كانت تتجاذب الرسول ﷺ تجاه هذه القضية، والتي يعبر عنها الوحي في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ توضح مدى التأثير الضخم الذي تفرضه تعليقات المنافقين واليهود ووساوسهم، التي كانت تتحين المناسبات والوقائع لتضفي عليها من تصوراتها المريضة المريبة، ما يسعىٰ إلى إشاعة روح الاختلال الأخلاقي في المجتمع المسلم الطاهر النظيف.

وكذلك شأن اللئام من مرضى النفوس إذا رأوا محاسن غيرهم ومساوئ أنفسهم، وعلموا أن محاسنه هي السر في تقدمه ورقيه، وأن مساوئهم ومواضع الضعف والانحلال فيهم هي التي تضع من شأنهم، وتسبب لهم الهزيمة والهوان، انصرفوا بكل همهم إلى أن يخلقوا في ذلك المجتمع النظيف الطاهر ـ بأي حيلة من الحيل وبمختلف الوسائل ـ ما في أنفسهم من أساليب الضعف والمساوئ والفوضى. وأن يرموه بما ليس فيه ويدنسوا ذيله ويشوهوا سمعته، فهذه العقلية هي التي حولت مساعي أعداء الإسلام إلى محاولة خلق ثغرات الضعف من داخله، وقد كان القيام بهذا الدور أسهل من الداخل، وكان أقدر الناس على تجنيد إمكانياتهم ومؤهلاتهم الطبيعية له هم «المنافقون» وحلفاؤهم من اليهود.

وقد أثار هؤلاء ما أثاروا في شأن زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها. ولم يمض وقت طويل حتى تحولوا إلى ما هو أشد وأعظم عندما أحدثوا قصة الإفك، واستوشوها وتداولوها، وأثاروا حولها ما أثاروا من الضجيج الذي هز الجماعة الإسلامية هزاً عنيفاً في الوهلة الأولى.

ونسرد هنا قصة الإفك كما حكاها ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد)، قال: «وذلك أن عائشة رضي الله عنه كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة (غزوة بني المصطلق) بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء النفر الذين يرحلون هودجها فظنوها

فيه فحملوا الهودج ولا ينكرون خفته؛ لأنها رضي الله عنها كانت فَتِيَّةَ السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها. وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال.

فرجعت عائشة إلى منازلهم وقد أضاعت العقد فإذا ليس بها داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ـ والله غالب على أمره يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ـ فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صَفْوَان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟! وكان صفوان قد عَرَّسَ[1] في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم، كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم وفي السنن.

فلما رآها عرفها وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته فقربها إليها فركبتها وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها وقد نزل الجيش في نحر[2] الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به. ووجد الخبيث عبد الله بن أُبي متنفساً فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتفرقون به إليه»[3].

وجاء في السيرة الحلبية أن عبد الله بن أُبي كان أول من أشاع حديث الإفك في العسكر. فإنه كان ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين عن الناس فمرت عليهم فقال: من هذه؟ قالوا: عائشة وصفوان! فقال: فَجَرَ بها ورب الكعبة! وفي لفظ: ما برئت منه وما برئ منها. وفي لفظ: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وصار يقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت. ثم

---

(١) عرس: نزل في آخر الليل للاستراحة. قاموس (عروس) ٢ ـ ٢٣٨.
(٢) نحر الظهيرة: أولها. قاموس: (نحر) ٢ ـ ١٤٤.
(٣) ابن القيم: ج: ٢ ـ ١١٣.

أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم لها لشدة عداوته لرسول الله ﷺ. والذي في البخاري أن عبد الله بن أُبي «كان يَتحدَّثُ بالإفك ويُتَحدَّثُ به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه»[1].

وقد كان واضحاً عند الصفوة من المسلمين أن الأمر لا يعدو أن يكون من تلفيق المنافقين وكذبهم. قال ابن إسحاق: حدثني أبي إسحاق بن يسار عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك[2].

قال ابن القيم: «وقد اقتضى تمام الابتلاء والامتحان أن حبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهراً في شأنها، لا يوحي إليه في ذلك شيء؛ لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم»[3].

وقد قام الرسول ﷺ ـ عن استلباث الوحي وتأخره ـ فخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق**» وفي رواية: فاستعذر من عبد الله بن أُبي ابن سلول فقال وهو على المنبر: «**من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً** ـ يعني: صفوان ـ **ما علمت عليه إلا خيراً، ولا يدخل بيتي** ـ وفي لفظ ـ **بيتاً من بيوتي إلا وأنا حاضر. ولا غبت في سفر إلا غاب معي، يقولون عليه غير الحق**»[4].

---

(١) السيرة الحلبية: ٢ ـ ٦٠٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣: ٧٦٩.

(٣) زاد المعاد: ٢ ـ ١١٤.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣: ٧٦٧، السيرة الحلبية ٢: ٦١٥.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، فقام سعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وتساور الناس حتى كاد يكون بين الحيين من الأوس والخزرج شر[1].

لقد ذكرت الروايات أن الذي تولى ترويج حديث الإفك عبد الله بن أُبي في رجال الخزرج، ومِسْطَح بن أَثَاثة وحسان بن ثابت وحَمْنَة بنت جحش، وقد ورد أنه لما نزل الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها، أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك فجلدوا، وهم رجلان وامرأة، أما الرجلان فهما مسطح بن أثاثة وعبيد الله بن جحش، ويقال له أبو أحمد وكان ضريراً، أما المرأة فهي حمنة بنت جحش، وقد وقعت في محنة الإفك؛ لأنها كانت تضاد عائشة رضي الله عنها، لأختها زينب بنت جحش فأصابها ما أصابها[2].

وقد ثبت أن عبد الله بن أُبي لم يُحَدَّ في هذه الحادثة، وتعددت الآراء في تفسير ذلك وبيان سببه، وسنرجع للحديث في هذا في فصل لاحق. إنما الذي يهمنا هنا هو أن ابن أُبي كان وراء هذه الفتنة المنكرة، هو الذي بدأها وَجَرَّأَ الناس عليها، وكان كما قال ابن القيم: «يستحكي الإفْكَ ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه وكان أصحابه يتقربون به إليه»[3].

والذي نسعى إليه هنا هو كشف أساليب المنافقين وطرائقهم في الشغب على المسلمين، وإشاعة الفوضى والاضطراب داخل كيان الجماعة الإسلامية، على أنه ينبغي أن يتنبه الدارس إلى أن هذا الحادث وكل حوادث

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ ـ ٧٦٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن القيم: زاد المعاد: ٢: ١١٣.

السيرة في حياة الرسول ﷺ، مما عالجه القرآن وحكم فيه الوحي، إنما هو في حقيقته مرحلة من مراحل البناء الذي كانت تصاغ من خلاله شخصية الجماعة الإسلامية في مجالات العقيدة والتشريع والتربية.

وقد تميز بناء المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع صنع في واقع الحياة المتحركة، ومن خلال حياة ذلك الجيل الأول وتفاعلاتها، وقد كان في هذه الحوادث كلها منطلق لتشريعات وتوجيهات عظيمة النفع خالدة التأثير، أضحت فيما بعد جزءاً من بناء الإسلام في أحكامه ومثله وآدابه.

فقد نزل الوحي بسورة النور التي شملت أعظم التشريعات والتوجيهات في نطاق الحياة الاجتماعية والأخلاقية، ليس هنا موضع الحديث فيها، ولكن نشير على القارئ بالرجوع إلى الدراسات المتخصصة لاستجلاء هذه التشريعات والوقوف على تفاصيلها[1].

وبعد أن ألمحنا إلى ذلك الدور الذي استهدف به المنافقون البناء الأخلاقي للجماعة الإسلامية، في شخص عائشة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ وأحب نسائه إليه، وبنت أبي بكر الصديق صاحب رسول الله وعضده ووزيره، فكانت هذه الحملة في حقيقتها تستهدف قيادة الجماعة الإسلامية في شخصيتيها الأوليين... وهي لعمري حملة تحمل في طياتها خبث النفاق، ولؤم أصحابه، وجراءتهم على الأذى والشر.

أقول نعود بعد هذا لنتابع بقية المواقف التي كان يغلي بها مرجل النفاق بين حين وآخر.. وهي إذا استثنينا ما سبق وعرضناه في حادثة الإفك، وما تكلموا به في زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش. تتداخل ما بين نكوص عن الجهاد وتوهين للمسلمين، وتحريض لأعداء الإسلام من يهود وغيرهم، ومؤازرتهم على حرب الإسلام، وتكذيب الرسول ﷺ ورفض لنبوته. بل بلغت في بعض المواقف إلى محاولة طرح النبي ﷺ عن راحلته لغرض

---

(١) يراجع في ذلك كتب التفسير: تفسير سورة النور. وكتاب تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي.

قتله. . ولنعرض لبعض تلك المواقف التي تجسم مظاهر هذا الصراع المتصل المستمر:

ففي غزوة الحديبية. عندما عزم عليه السلام على العمرة، واتجه قاصداً مكة، استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ممن أسلم من غفار ومزينة وجهينة وأسلم ـ خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت ـ فتثاقل كثير منهم وقالوا: أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم. واعْتَلُّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس هناك من يقوم بذلك»[1]. وقد نزل الوحي بتكذيبهم في اعتذارهم بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. [آل عمران: ١٦٧]

ومن المواقف المتخاذلة في هذه الغزوة موقف الجَدِّ بن قيس الذي تخلف عن بيعة الرضوان. . . فقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل (وكان قد بعثه الرسول ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أنه قد قتل) فقال ﷺ حين بلغه ذلك: «لا نبرح حتى نناجز القوم». فدعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس، أخو بني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ[2] إليها يستتر بها من الناس[3].

وفي غزوة خيبر، استنفر رسول الله ﷺ من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء

---

(١) السيرة الحلبية: ٢: ٦٨٩.

(٢) ضبأ إليها: لصق بها واستتر.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣ ـ ٧٨٠ ـ ٧٨١.

الغنيمة ، فقال: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، فأما الغنيمة فلا تعطوها[١].

وقد عاد عبد الله بن أُبي في هذه الغزوة إلى موقفه المعهود من مؤازرة اليهود وتحذيرهم. فقد ذكر أنه أرسل إلى يهود خيبر «أن محمداً سائر إليكم ، فخذوا حذركم وأدخلوا أموالكم حصونكم ، واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة قليلون عزَّل لا سلاح معهم إلا قليل»[٢].

وقد توالت انتصارات المسلمين بعد هذا فهم من نصر إلى آخر ومن فتح إلى فتح ، وكان الفتح الأعظم وما تبعه من انتصارات على هوازن وغيرها... ولم يبد من المنافقين في هذه الفترة حتى غزوة تبوك ، إلا بعض المواقف التي تعكس ضغائنهم وأمراض نفوسهم.. فحينما انهزم المسلمون في حنين تكلم رجال من أهل مكة بما في نفوسهم من الضعف ، ومنهم أبو سفيان بن حرب ، وكان إسلامه بعد مدخولاً ، فقال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. ووصلت أخبار الهزيمة إلى مكة ، وسر بذلك قوم من مكة ، وأظهروا الشماتة ، وقال قائل منهم: ترجع العرب إلى دين آبائها. وقال آخر ، وهو أخ لصفوان بن أمية من أُمِّهِ ألا قد بطل السحر اليوم[٣]. وهي مظاهر لحسد صدورهم الذي يتردد فيها من الضغن والنفاق.

ومن ذلك ما كان من كلامهم في قسم رسول الله ﷺ للغنائم ، ففي قسم غنائم حنين قال بعض المنافقين: (قيل: وهو مُعَتِّب بن قشير) «هذه القسمة ما عدل فيها ولا أُرِيدَ بها وجه الله». فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فتغير وجهه الشريف ، وغضب غضباً شديداً ، وقال: «**ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحمة الله على أخي موسى عليه السلام. لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر..**»[٤].

---

(١) السيرة الحلبية ٢ ـ ٧٢٦.

(٢) المصدر السابق: ٢ ـ ٧٣٠.

(٣) السيرة الحلبية ٣: ٧٠.

(٤) المصدر السابق: ٣ ـ ٨٧.

وفي رواية ابن إسحاق يسندها إلى عبد الله بن عمرو بن العاص: قال: جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة، فوقف عليه (أي على الرسول ﷺ) وهو يعطي الناس (يوم حنين) فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل، فكيف رأيت؟**» فقال: لم أرك عدلت قال: فغضب النبي ﷺ ثم قال: «**ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون**»؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ألا أقتله؟ فقال: «**لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القدح فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء، سبق الفرث والدم**»[1].

ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع، ففضحت دخيلة المنافقين، وأظهرت حال كثير منهم، وكان يقال لها الفاضحة لذلك[2].

وقد كانت الغزوة في زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كَنَّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[3].

وقد ظهر نكوص المنافقين، وتخاذلهم في هذه الغزوة في أكثر من صورة: فحين التجهز للغزوة قال الرسول ﷺ ذات يوم للجَدِّ بن قيس، أحد

---

(١) المصدر السابق: ٣ ـ ٨٧، السيرة النبوية لابن هشام: ٤ ـ ٩٣٣. وهذا الأثر رواه البخاري في صحيحه (الفتح ٦: ٤٥٥) ومسلم في صحيحه ٧: ١٦٥ من طريق الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وجاء الخبر عن طريق صحاح كثيرة. وفي رواية عن قتادة أن الذي قال ذلك رجلٌ من أهل البادية حديث عهد بأعرابية، ولم يبينه.

(٢) السيرة الحلبية: ٣ ـ ٩٩.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ٤ ـ ٩٤٣، السيرة الحلبية ٣ ـ ٩٩ ـ ١٠٠.

بني سلمة: «**يا جَدُّ، هل لك العامَ في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إذا رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «**قد أذنت لك**»[1].

وتذكر الرواية أن ابنه عبد الله لامَهُ على ذلك وقال له: «والله ما يمنعك إلا النفاق، وسينزل اللهُ فيك قرآناً»[2]. وفي الجد بن قيس هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [التوبة: ٤٩].

وقد تقدمت الإشارة إلى أن الجد بن قيس لم يبايع بيعة الرضوان[3]. ويذكر عنه أنه تاب من النفاق، وحسنت توبته.

وفي هذه الغزوة قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر. زهادة في الجهاد وشكاً في الحق، وإرجافاً برسول الله ﷺ[4]. وانبعث الحلف الآثِم بين المنافقين واليهود من جديد، فكانوا يجتمعون لينفثوا سمومهم، ويرجفوا بالمسلمين تثبيطاً لهم، وهزاً لمعنوياتهم. وقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم. ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا[5].

وجاء المعذّرون من الأعراب، وهم الضعفاء والمقلون منهم، ليؤذن لهم في التخلف، فأذن لهم عليه السلام. وكانوا اثنين وثمانين رجلاً (ولم

---

(١) ابن هشام: السيرة: ٤ ـ ٩٤٤، الحلبية: ٣ ـ ١٠٣.
(٢) السيرة الحلبية: ٣ ـ ١٠٣.
(٣) انظر ما سبق ص: ٤٦.
(٤) ابن هشام: السيرة: ٤ ـ ٩٤٤، السيرة الحلبية: ٣ ـ ١٠٣.
(٥) المصدر السابق ٣ ـ ١٠٣، ابن هشام: السيرة، تحقيق السقا وآخرون: ٤: ١٦٠.

يعذرهم الله تعالى)، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذرٍ ولا علةٍ، جراءةً على الله ورسوله...[1].

ولما عزم الرسول عليه السلام على الخروج، ضرب عسكره على ثنية الوداع، وأبى ابن أُبي إلا أن يعاود عادته القديمة في انتحال الرئاسة، ومساماة الرسول عليه السلام في الزعامة، فضرب عسكره على حدة أسفل من عسكر رسول الله ﷺ، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين. فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أُبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[2].

وقال عبد الله بن أُبي عند تخلفه: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ـ ما لا طاقة له به ـ يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مُقَرَّنينَ في الحبال. يقول ذلك إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه[3].

وذكر ابن إسحاق أن رهطاً من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخَشِّنُ بن حُمَيِّر، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً. والله لكأنّا بكم غداً مقرنين في الحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

فقال مخشن بن حمير: والله لوددْتُ أني أُقَاضَى على أن يُضْرَبَ كل واحد منا مئة جلدة وأنا ننفلتُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أَدْرِكِ القوم فإنهم احترقوا[4] فسلهم عما قالوا. فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا».

فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٩٤٦، السيرة الحلبية ٣: ١٠٤.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٩٤٦.
(٣) السيرة الحلبية: ٣: ١٠٢.
(٤) احترقوا: أي هلكوا بسبب ما قالوه.

وديعة بن ثابت ، ورسول الله ﷺ واقف على ناقته ، فجعل وهو يقول وهو آخذ بِحَقَبِها: يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب. . فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]» ـ الآيات[١].

ولم يترك المنافقون فرصة يؤذون بها الرسول والمسلمين إلا فعلوا. ففي هذه الغزوة خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، على أهله ، وأمر بالإقامة فيهم. فأرجف به المنافقون وقالوا:

ما خلفه إلا استثقالاً له ، وتخفُّفاً منه. . فلما قال المنافقون ذلك أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرْفِ فقال: يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني ، وتخففت مني. فقال: «كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». فرجع علي إلى المدينة. .[٢].

وقد تخلف نفر من المسلمين على غير شك ولا ريب ، منهم كعب بن مالك بن أَبِي كعب ، ومُرَارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وأبو خيثمة مالك بن قيس. أما أبو خيثمة فقد لحق برسول الله ﷺ. ولم يلحق الآخرون ولم يعتذروا بشيء ، وتابوا إلى الله تعالى فتاب عليهم بعد تمحيص ومحنة شديدين[٣].

وقد قال أبو خيثمة شعراً يصور فيه حاله ، وما كان منه ، وما عليه أهل النفاق ، ذكر منه ابن هشام هذه الأبيات[٤]:

ولَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ فِي الدِّينِ نَافَقُوا ... أَتَيْتُ الَّتِي كَانَتْ أَعَفَّ وَأَكْرَمَا

وَبَايَعْتُ بِاليُمْنَى يَدِي لِمُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْماً وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَمَا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٤ ـ ٩٥١ ـ ٩٥٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٤: ٩٤٦ ـ ٩٤٧.

(٣) المصدر السابق: ٤ ـ ٩٥٧ ـ ٩٦٤.

(٤) المصدر السابق: ٤: ٩٤٨.

تَرَكْتُ خَضِيْباً فِي الْعَرِيشِ وَصِرمَة صفَايَا كِرَاماً بُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[1]
وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ الْمُنَافِقُ أَسْمَحَتْ إِلَى الدِّينِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثُ يَمَّمَا[2]

وفي منصرف رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، كان ما هَمَّ به نفر من المنافقين من طرح رسول الله ﷺ من العقبة يريدون قتله.

قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد[3]: ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة قال: ورجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناسٌ من المنافقين، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم، فقال: «من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فهو أوسع لكم». وأخذ رسول الله ﷺ العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وقد هموا بأمر عظيم.

وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه. وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة يَسُوقُها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم. وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ، فرجع ومعه محجن، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فِعْلُ المسافر. فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فلما أدركه قال: «**اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار**»، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس.

---

(١) الخضيب: المخضوبة. والصرمة: جماعة النخل، وصفايا: كثيرة الحمل، وأصله في الإبل، واستعاره هنا للنخل. والبسر: التمر قبل أن يُرْطِب. وتحمما: أي أخذ في الإرطاب فاسودَّ.

(٢) أسمحت نفسي: انقادت، وشطره: قصده وناحيته.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد ج: ٣: ٩.

فقال النبي ﷺ لحذيفة: «**هل عرفت مِنْ هؤلاء الرهط أو الركب أحداً؟**» قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون. فقال رسول الله ﷺ: «**هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟**» قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: «**فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعتُ في العقبة طرحوني منها**».

وقد ذكر النص أن عدد أولئك النفر اثنا عشر رجلاً، ذكر أسماءهم جميعاً، وذكر منهم عبد الله بن أُبيّ، وسعد بن أبي سرح، وأبا عامر. وقد اعترض ابن القيم اعتراضاً وجيهاً على وجود هؤلاء بالذات بين أولئك النفر، وعلى معرفة أسماء أولئك النفر كلهم لغير حذيفة، وقد استند في اعتراضه ذلك إلى أسباب:

أولاً: أن النبي ﷺ أَسَرَّ بأسماء أولئك المنافقين إلى حذيفة وحده، وكان يقال له «صاحب السر» لذلك، وأن جلة الصحابة أمثال عمر لم يكونوا يعرفون أحداً من المنافقين، وكان عمر يعرفهم إذا تخلف حذيفة عن حضور جنازة أحدهم.

ثانياً: أن الروايات تجمع على تخلف عبد الله بن أُبي عن هذه الغزوة، فإيراد اسمه فيهم خطأ ظاهر.

ثالثاً: أن من بين ذكر من منهم سعد بن أبي سرح، وهو رجل لم يُعْرَفْ له إسلامٌ البتة.

رابعاً: جاء في النص أن رأسهم كان أبَا عامر الفاسق، ومعروف أن أبا عامر قد ترك المدينة لما هاجر إليها رسول الله ﷺ، وذهب إلى مكة، فلما فتح الله مكة لنبيه خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام محارباً لله ورسوله، فمات بها شريداً طريداً.[1].

وقد ذكر الرواة نفراً ممن أشرنا إليهم آنفاً، أنهم هموا بطرح الرسول ﷺ من العقبة، وذكروا أقوالاً أثرت عنهم تدل على نفاقهم، وتأصل الشر فيهم.

---

(١) زاد المعاد: ٣ ـ ٩.

ونحن نثبت هذه الأقوال فيما يلي ـ وإن لم يتأكد لدينا أنهم من أصحاب العقبة أو قالوها في هذه المناسبة ، فالغالب في شأن أصحاب العقبة من المنافقين أن رسول الله ﷺ أراد أن يبقي أمرهم سراً ، وائتمن عليه حذيفة ـ فكان أميناً حافظاً لسر رسول الله ﷺ ـ ولا يبعد أن يكون هؤلاء النفر قد قالوا ما قالوا في هذه المناسبة أو غيرها ، وهي تكشف صوراً من عداء المنافقين للرسول عليه السلام ، ومدى تمكن ذلك من نفوسهم.

فقد ذكر النص[1] أن منهم الجُلاس بن سُوَيْد بن الصامت ، وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة. وإن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنَّا إذاً لغنم وهو الراعي. ولا عقل لنا وهو العاقل[2]. ومنهم مُجَمِّع بن حارثة ، ومُلَيْح التيمي. وهو الذي سرق طيب الكعبة وانطلق محارباً في الأرض ، فلا يُدْرَىٰ أين يذهب. وحصن بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه. وطعيمة بن أُبَيْرِق ، وعبد الله بن عيينة ، وهو الذي قال لأصحابه: اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل. ومرة بن الربيع الذي قال: نقتل الواحد الفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين[3].

فهذا التآمر على حياة الرسول ﷺ كان أقصى ما بلغه هؤلاء المنافقون في حربهم لله ورسوله ومعاندتهم للمسلمين ، وقد كان الوحي يكشف أضغانهم ، وما بيتوا من كيدهم وشرورهم كلما هموا بشيء من ذلك.

وقد تميزت ملامح النفاق ومظاهره ، حتى بات ذلك معروفاً لدى المسلمين ، بل إنهم كانوا يعرفون المنافقين في بيوتهم وأُسرهم وعائلاتهم.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد عن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٦٣. وينص هناك على أن جلاساً كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد: ٣: ٩.

رجال من بني عبد الأشهل قال: قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه ومن عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك[1].

وقد كان المنافقون في أغلب أمرهم يقومون بدور الطابور الخامس، الذي يحاول عرقلة الجيش وإشاعة الفوضى فيه من الداخل. وقد حاولوا في بعض الأحيان أن يكون لهم كيان متميز، يفرقون به بين صفوف المسلمين، ويشغبون به عليهم، وكان أظهر مواقفهم في ذلك بناؤهم مسجد الضرار، وقد رُوِيَ سببان في بناء هذا المسجد:

الأول: إن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نصلي في مربط حمار! لا لعمر الله (وبقعة مسجد قباء كانت لامرأة ترتبط فيها حمارها) ولكنا نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فيثبت لنا الفضل والزيادة.

الثاني: إن أبا عامر الراهب ـ الذي سماه رسول الله ﷺ الفاسق ـ هو الذي أمر ببناء المسجد وقال لهم: ابنوا لي مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة[2].

فلما بنوه أتوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه، وتدعو لنا بالبركة. فقال: «**إني على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه**». وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك حتى نزل بذي أوان، وبينها وبين المدينة ساعة، فجاءه خبر

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٤: ٩٤٩.

(٢) الزمخشري: الكشاف: ٢: ٣١٠، ابن هشام: السيرة النبوية: ٤: ٩٥٦. السيرة الحلبية: ٣: ١٢٢، ابن القيم: زاد المعاد: ٣: ٩ ـ ١٠.

المسجد من السماء ، فدعا ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان ، فقال: انطلقا إلى المسجد الظالم أهله فاهدماه ، وحرقاه.

فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فأخذ مالك سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله. فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وبذلك قضى رسول الله ﷺ على هذه الجرثومة التي أرادت أن تسن أسباب الفرقة بين المسلمين في المهد ، وأن تفتح المجال أمام نعرات التزايد بأمور الدين ، التي وكل الله أمرها إلى رسوله عليه السلام وحده ، ولم يترك فيها مجالاً للهوى ودوافعه.

وقد ذكر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعة أمور: الأول: الضرار لغيرهم. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين؛ لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى. والرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي: الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله[2]. وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ويذكر ابن إسحاق أن الذين بنوه اثنا عشر رجلاً ، هم: خِذَام بن خالد ، ومن داره خرج المسجد ، وثَعْلَبَة بن حاطب، ومُعَتِّب بن قُشَيْر، وأبو حبيبة بن

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: تحقيق السقا وآخرين جـ ٤: ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) الشوكاني ، محمد بن علي: فتح القدير: ٢: ٤٠٣.

الأزعر ، وعباد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه مُجَمِّع بن جارية[1] وزيد بن جارية ، ونَبْتَل بن الحارث ، وبَخْزَجُ ، وبجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت[2].

والذي عرضناه من مواقف المنافقين فيما سبق يمثل ما نستطيع أن نسميه مواقف جماعية ـ أو تحركاً جماعياً ، أخذ ذلك الطابع الجماعي العام للتأثير في حركة الجماعة الإسلامية الناشئة. ولاشك أنه من المفيد للبحث أن نستعرض هنا صوراً مقربة من مواقف المنافقين ، حين يكون تقييمنا «لموقف» المنافق أو «كلامه» أكثر وضوحاً ، عندما نعرضه في إطاره المحدد ، وفي ظروفه ، وملابساته الواقعية.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الناس كانوا يعرفون النفاق بعلامات وتصرفات تكشف أصحابها وتفضحهم ، حتى إن الرجل «ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه ومن عشيرته».

وقد جمع ابن إسحاق قدراً صالحاً من مواقف المنافقين ، وذكر أسماء عدد منهم في فصل خاص تحدث فيه عنهم[3]. فمنهم زُوَيُّ بن الحارث ، وجُلاس بن سويد بن الصامت ، وأخوه الحارث بن سويد بن الصامت.

وجُلاس هو الذي قال ـ وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ـ: «لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمر» فَرَفَعَ ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ عُمَيْرُ بن سعد ، وكان في حجر جلاس! خَلَفَ جُلاسُ على أمه بعد أبيه ، فقال له عمير بن سعد: والله يا جلاس ، إنك لأحب الناس إليَّ وأحسنهم عندي يداً ، وأعزهم على أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صَمَتُّ عليها ليهلكن ديني ، ولإحداهما أيسر علي من الأخرى.. ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس ،

---

(١) ذكره سابقاً باسم: مجمع بن حارثة. (س).

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية: ٤: ٩٥٦ ـ ٩٥٧.

(٣) المصدر السابق: ٢: ٣٦٣ وما بعدها.

فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ: لقد كذب علي عمير، وما قلتُ ما قالَ عميرُ بن سعد. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1] [التوبة: ٧٤].

وكان جلاس بن سويد بن الصامت ـ قبل توبته ـ ومُعَتِّبُ بن قُشَيْر، ورافع بن زيد وبشير بن زيد، وكانوا يدعون بالإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى الكهان، حكام أهل الجاهلية. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2] [النساء: ٦٠].

ومنهم نَبْتَلُ بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الحَارِثِ**». وكان رجلاً جسيماً أَدْلَمَ[3] ثائر شعر الرأس، أحمر العينين أَسْفَعَ الخَدَّيْنِ[4]. وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين. وهو الذي قال: إنما محمد أُذُنٌ، مَنْ حدثه شيئاً صدقه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] [التوبة: ٦١].

وقد جاءت الرواية أن جبريل عليه السلام ذكر صفة نبتل هذا لرسول الله ﷺ، وحذره منه[6].

---

(١) المصدر السابق: ٢: ٣٦٣.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٦٨.
(٣) الأدلم: الآدم والشديد السواد من الناس. (دلم) قاموس: ٤: ١٦٤.
(٤) أَسْفَعَ الخَدَّيْنِ: في خَدَّيْهِ حُمْرَةٌ تميل إلى السواد. (س).
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٦٤.
(٦) المصدر السابق: ٢ ـ ٣٦٥.

وهناك النفر الاثنا عشر الذين بنوا مسجد الضرار الذي سبقت الإشارة إليه[1]. ومنهم ثعلبة بن حاطب ومُعَتِّب بن قشير، وهما اللذان عاهدا الله «لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين» إلخ القصة[2]. ومعتب بن قشير هو الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا. فأنزل الله تعالى قوله في ذلك: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤][3].

وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان محمد يعدنا أن نأكل كنز كسرى وقيصر، وأَحَدُنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط. فأنزل الله عز وجل فيه:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[4] [الأحزاب: ١٢].

ومن بني النَّبِيت[5]، عَمْرو بن مالك بن الأوس: مِرْبَعُ بن قَيْظِيّ، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه ورسول الله ﷺ عامدٌ إلى أُحُدٍ[6]: لا أُحِلُّ لك يا محمد إن كنت نبياً أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصيرة**»[7].

وأخوه أَوْسُ بن قَيْظِيّ. وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة فائذن لنا فلنرجع إليها. فأنزل الله تعالى فيه:

---

(١) انظر ما سبق.
(٢) انظر ما يأتي.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ٣٦٥.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٢ ـ ٣٦٥.
(٥) النَّبِيت: لقبٌ لعمرو بن مالك بن الأوس. (س).
(٦) يعني حين اجتاز الرسولُ ﷺ حائطَه وهو في طريقه إلى أُحُد. (س).
(٧) المصدر السابق: ٢ ـ ٣٦٧.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1] [الأحزاب: ١٣].

ومن بني ظَفَرِ بن الحارث بن الخزرج: حاطبُ بن أمية بن رافع، وكان شيخاً جسيماً قد عسا[2] في جاهليته، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب، أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحاتُ، فحُمِلَ إلى دار بني ظفر، فاجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت، فجعلوا يقولون له: أبشر يا بن حاطب بالجنة.. فَنَجَمَ[3] نفاقُ أبيه يومئذ، فجعل يقول: أجل، جَنَّةٌ واللهِ من حَرْمَل!! غَرَرْتُمْ واللهِ هذا المسكين من نفسه[4].

وقُزْمَانُ، حليفٌ لبني ظَفَر: قال ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «**إنه لمن أهل النار**». فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً حتى قَتَلَ بضعة نفر من المشركين. فأثبتته الجراحات، فحُمِلَ إلى دار بني ظَفَر، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قزمان، فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله: قال: بماذا أُبَشَّر؟ فوالله ما قاتلتُ إلا حمية لقومي. فلما اشتدت به جراحاته وآذته، أخذ سهماً من كنانته، فقطع رواهش[5] يده فقتل نفسه[6].

ومن بني ظَفَر أيضاً، أبو طعمة بُشَيْر بن أُبَيْرِق، سارق الدرعين الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧][7].

وقد روي أنه سرق درعاً من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب

---

(١) المصدر السابق.
(٢) عسا: أسن وولى. ابن هشام: السيرة النبوية: ط. تحقيق السقا وزملائه ٢: ١٧١. [يُريد أنه تمكَّن في كفره، فصعُبَ إخراجُه عنه. (س)].
(٣) نجم: ظهر وطلع.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٦٧.
(٥) الرواهش: عروق ظاهر الكف.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢: ٣٦٨.
(٧) المصدر السابق: ٢ ـ ٣٦٧.

وحماية لأنفسهم أن ينالهم ما نال إخوتهم ممن حاربوا الله ورسوله، منهم سعد بن حنيف، وزيد بن اللُّصَيْت، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، ورافع بن حريملة ورفاعة بن زيد بن التابوت. وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صورياء[1].

وزيد بن اللُّصَيْت هو الذي قاتل عمر بن الخطاب في سوق بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته[2].

ورافع بن حريملة هو الذي قال له[3] رسول الله ﷺ حين مات: «**قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين**». وكذلك رفاعة بن التابوت وهو الذي قال له رسول الله ﷺ ـ حين هبت عليه الريح وهو قافل من غزوة بني المصطلق فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها ـ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار**». فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح[4].

ومما كان يكشف دخيلة المنافقين، وفساد عقيدتهم، ما كانوا يتكلمون به أثناء بعض المواقف التي يظهر فيها الله سبحانه وتعالى آياته على يد الرسول ﷺ. وقد أشرنا في نص سابق إلى كلمة زيد بن اللصيت عندما ضلت ناقة رسول الله ﷺ، متخذاً ذلك ذريعة للتكذيب بنبوته عليه الصلاة والسلام، وهذا الإنكار للمعجزات التي أجراها الله تصديقاً لنبيه مسلك آخر يريدون به إنكار نبوة الرسول ﷺ.

ويذكر الرواة أن المسلمين في طريقهم إلى تبوك نزلوا منزلاً أصابهم فيه عطش شديد، فطلب أبو بكر إلى الرسول ﷺ أن يدعو الله، فدعا الله ورفع يديه فلم يرجعها، حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٢) المصدر السابق: ٢: ٣٧٠، السيرة الحلبية: ٣: ١٠٧.
(٣) قال له: أي قال لأجله. (س).
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢ ـ ٣٧٠.

ما يحتاجون إليه. وذكر بعضهم أن تلك السحابة لم تتجاوز العسكر. وأن رجلاً من الأنصار جاء فقال لآخر متهم بالنفاق: ويحك قد ترى، فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله تعالى:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وقيل: إنه قال له: ويحك، هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة[١].

وقد وقع مثل هذا في الحديبية: فقد نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية على ثَمْدٍ من ثمادها[٢] قليل الماء يتربصه الناس، ثم لم يلبث الناس حتى نزحوه، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء، وكان الحر شديداً. فنزع ﷺ سهماً من كنانته ودفعه للبراء، فقال: «**اغرز هذا السهم في بعض قَلِيب[٣] الحديبية**» ففعل والقليب جاف، فجاش الماء وفارت البئر كما يفور القدر، حتى طمت واستوت بشفيرها يغترفون من جوانبها حتى نهلوا عن آخرهم. وعلى البئر نفر من المنافقين منهم عبد الله بن أُبي ابن سلول. فقال أوس بن خولي رضي الله عنه: ويحك يا أبا الحباب، أبعد هذا شيء؟ فقال: إني رأيت مثل هذا. فقال له أوس: قبحك الله، وقبح رأيك[٤].

وكانت السياسة التي سلكها الرسول ﷺ مع هذه الفئة من الناس هي مداراتهم والإعراض عنهم، وكان القرآن يتنزل بما يفضحهم، ويكشف مكائدهم، ثم يلبسهم المسلمون وهم يعرفون منهم النفاق وفساد العقيدة، ورغم تحرق نفر من الصحابة ورغبتهم إلى الرسول ﷺ أن يضرب على أيديهم؛ فإنه كان يعرض عنهم، ويتركهم على حالهم.

فحين قال عبد الله بن أبي ما قال في غزوة بني المصطلق، وأشار عمر رضي الله عنه بضرب عنقه، قال عليه السلام: «**كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!!**» وعندما طلب ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى

---

(١) السيرة الحلبية: ٣: ١٠٧.

(٢) الثَّمَادُ: الحُفَرُ يكون فيها الماءُ القليل. (س).

(٣) القَلِيبُ: البئرُ. (س).

(٤) المصدر السابق: ٢: ٦٩٣ ـ ٣٩٤.

رسول الله ﷺ أن يتولى قتل أبيه بنفسه ، قال: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[1].

وعندما هَمَّ أولئك النفر من المنافقين بطرحه عليه السلام من العقبة. وكشف الله أمرهم لرسوله ﷺ ، وأخبر الرسول عليه السلام أسيد بن حضير بخبرهم وما هموا به ، قال له أسيد: يا رسول الله ، قد نزل الناس واجتمعوا فَمُرْ كل بطن أن يقتل الرجل الذي هَمَّ بهذا ، فإن أحببتَ فبَيِّنْ أسماءهم.. والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برؤوسهم ، فقال ﷺ: «**إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم**» فقال: يا رسول الله ، هؤلاء ليسوا بأصحاب. فقال رسول الله ﷺ: «**أليس يظهرون الشهادة؟!**».

وجاء مثل هذا في قصة ذي الخويصرة التميمي الذي وقف على رسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم فقال: يا محمد قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل ، فكيف رأيت؟**» قال: لم أرك عدلت. فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: «**ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند مَنْ يكون؟**» فقال عمر رضي الله عنه: ألا نقتله؟ قيل: وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: ألا أضرب عنقه.

قال الإمام النووي رحمه الله: ولا تعارض ، لأن كل واحد منهما استأذن فيه. ففي مسلم: «فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا**» ، ثم أدبر ، فقام إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا ، لعله أن يكون يصلي**» ، قال خالد رضي الله عنه: وكم مُصَلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم**»[2].

وسوف نناقش بالتفصيل أحكام المنافقين في فصل آخر[3]. ولكن الذي

---

(١) انظر ما سبق. السيرة الحلبية ج: ٣: ٥٩٩.

(٢) رواه مسلم (٣ ـ ١١١).

(٣) انظر ما يأتي.

نريد أن نقرره هنا هو أن المداراة كانت هي الأسلوب الذي سلكه الرسول ﷺ مع المنافقين. وأن علاج هذه الظاهرة كان يتولاه القرآن بما ينزل به الوحي من تتبع لمواقفهم وخبايا نفوسهم بالكشف والفضح.. وإن أعنف مظاهر العقوبة التي تعرض لها هؤلاء، كانت في تحريق بيت سويلم اليهودي على النفر الذين كانوا يثبطون المسلمين عن الانبعاث إلى غزوة تبوك[1]، وإخراج عدد من المنافقين، وطردهم من مسجد الرسول ﷺ.

فقد ذكر ابن إسحاق أن المنافقين يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً.

وهؤلاء المنافقون الذين أخرجوا من المسجد هم: عمرو بن قيس، من بني مالك بن النجار، وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية، أخذه أبو أيوب برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد. ورافع بن وديعة. أحد بني النجار. أخرجه أبو أيوب لَبَّبَهُ بردائه، ثم نَتَرَهُ نتراً شديداً[2]، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له: أفٍّ لك منافقاً خبيثاً! أَدْرَاجَكَ يا منافق[3] من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارةُ يديه جميعاً فلَدَمَهُ بهما في صدره لَدْمَةً خَرَّ منها[4]. يقول زيد: خَدَشْتَنِي يا عمارة. فقال عمارة رضي الله عنه: أبْعَدَكَ الله يا منافق، فما أعَدَّ الله لك من العذاب أشدُّ من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد مسعود بن أوس، إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان

---

(١) انظر ما سبق.
(٢) نَتَرَهُ: جَذَبَهُ. (س).
(٣) أَدْرَاجَكَ يا منافق: أي ارجع من الطريق التي جئتَ منها. (س).
(٤) اللَّدْمُ: الضربُ ببطن الكفّ. (س).

قيس غلاماً شاباً ، وكان لا يُعلم في المنافقين شابٌّ غيره ، فجعل يَدْفَعُ في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو ، وكان ذا جُمَّةٍ[1] ، فأخذ بجُمَّته فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد. يقول المنافق: لقد أغلظتَ يا ابنَ الحارث. فقال له: إنك أهلٌ لذلك؛ أيْ عَدُوَّ الله لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى زُوَيّ بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وأَفَّفَ منه[2] وقال: غلب عليك الشيطانُ وأمرُه.

قال ابن إسحاق: فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ، وأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم[3].

لقد حاولنا أن نستعرض في هذا الفصل مظاهر تحركات المنافقين وأساليبهم ، ومن خلال ما سبق ، وما سوف نعرض له في الفصل التالي سوف تتضح منه طبيعة هذه الفئة وأساليبها ووسائلها.

ونستطيع أن نلمس مما سبق صورة واضحة لطائفة من الناس من المدخولين في عقيدتهم ، ممن غلبهم تيار الإسلام فلم يقووا على حربه ظاهراً ، فآثروا التظاهر باعتناقه في علانيتهم مبيتين الكفر في سرائرهم. فهم لا يدخرون وسعاً في حربه ، ولا يفوتون فرصة لتوهين المسلمين والاستهزاء بهم ، وإشاعة الفوضى فيهم. تارة بخذلان المسلمين والإرجاف بهم وتقوية الأعداء عليهم. وتارة بنشر الإشاعة وقالة السوء في المجتمع المسلم. وأخرى بتكذيب الرسول ﷺ وإنكار نبوته.

ومع ذلك كله موالاة أعداء الله ورسوله من المشركين واليهود، وموادتهم، وتحريضهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين.

---

(١) الجُمَّة: الشَّعَر الكيف. (س).

(٢) أَفَّفَ منه: قال له أفّ. (س).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢: ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

الفصل الخامس

ظاهِرة النفَاق في إطَار المَوازيْن الإسِلاميّة

لقد أخرنا هذا الفصل إلى هذا الموضع من البحث؛ لِيُكَوِّنَ القارئ الكريم من دراسته للفصول السابقة صورة عامة لطائفة المنافقين وتحركاتهم ، وسوف يضطرنا البحث إلى معاودة الحديث عن الكثير من الوقائع ، عند الحديث عن مناسبة نزول بعض الآيات القرآنية التي سنعرض لها في هذا الفصل.

ومعلوم أن القرآن قد واكب أحداث الرسالة طوال فترة نزول الوحي.. وقد كان أثناء ذلك يعالج بناء ذلك المجتمع الفريد ، ويتعهده في فترة النماء الأولى ، بأسلوب متميز في التربية تعددت فيه أساليب القرآن في عرض المشكلة ومواجهتها وعلاجها.. فكان في نماذج البشر وأصنافهم ومواقفهم في الحياة في تلك المرحلة من تاريخ «الإنسان» صدى في القرآن ، يصورها ويتحدث عنها ويحكم فيها. وقد مضى ذلك الجيل من الناس ، وبقي القرآن بياناً وهدى وميزاناً عدلاً ، يقيس عليه الناس في الأجيال المتعاقبة أحوالهم ، ويلتمسون فيه صلاحهم.

ولذلك فسنواجه في الآيات القرآنية التي سنعرضها هنا في الفصول التالية حديثاً عن جماعات من الناس كان لها شأن ودور في واقع السيرة ، هي في الحقيقة نماذج تطبيقية للتصور الذي تحدده الآيات القرآنية لما أسميناه ظاهرة النفاق. وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله ﷺ ، ولم تنقطع في أي وقت تقريباً ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين.. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه

الفترة التاريخية وفي أحداثها ، وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدراً كبيراً ، وورد ذكرها في القرآن الكريم ، وفي الحديث الشريف مرات كثيرة يدل على ضخامة هذه الحركة ، وأثرها البالغ في حياة هذه الدعوة في ذلك الحين. . . ولا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً.

والقرآن في أسلوبه ومنهجه يعالج قضية متكاملة هي قضية الإنسان ، وتبليغه رسالة الإسلام وهدى الله سبحانه ، وتبصيره الطريق القويم السليم بمنهج متكامل يدل على الحق ، ويحذر من الباطل ، ويأمر بالصالح وينهى عن الطالح. ونحن في علاجنا لهذه المسألة على هذه الصورة الجزئية نشعر أننا ننتقص من هذا المنهج القرآني ، ونظلمه إلى حد بعيد ، ولكن عذرنا في هذا أننا نحاول تسليط الضوء على ظاهرة بعينها.

ولكن لن تتضح صورة النفاق حتى تعرض في إطارها الصحيح بعرض الصورة المقابلة ، صورة الإيمان العميق والعقيدة الصادقة بكل مقوماتها وإيجابياتها ، وهو أمر لا يقوم به مثل هذا البحث. وكل ما يطمح إليه هو توجيه القارئ إلى استطلاع القرآن نفسه مباشرة وسيرة الرسول عليه السلام وحديثه.

فتلك هي الوسيلة المثلى لاستيعاب المنهج القرآني المتكامل ، ومعرفة التصور الصحيح لما يعرض له من ظواهر النشاط الإنساني في مختلف مجالاته ، ولإدراك الحق ومعرفة الهدى الذي أكرم الله به الإنسان المسلم ، وكلفه بتبليغه إلى الناس.

لقد سبقت الإشارة إلى أن شأن المنافقين إنما ظهر ، وكان له أثر بارز في أحداث السيرة ، وفي حياة الجماعة الإسلامية بعد الهجرة ، وبعد ظهور الإسلام بالمدينة ، وبعد أن صار للمسلمين شوكة تخاف. ولذلك فإن الحديث عن هذه الطائفة ورد فيما نزل من القرآن بعد الهجرة ، أو فيما يعرف

في الاصطلاح بالقرآن «المدني». حتى إنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً.

ونحن نود بعد هذا التنبيه إلى هذه الحقيقة أن نخص بالدراسة تلك الآيات؛ التي عالجت بصراحة ووضوح قضية «النفاق» وأصحابها.

ومن مجموع السور المدنية التي يبلغ عددها ثمانية وعشرين سورة، فإن موضوع النفاق والمنافقين يحتل حيزاً واسعاً من خمس عشرة سورة هي حسب ترتيبها على ما يعتمده الزركشي[1]: سورة البقرة، سورة الأنفال، آل عمران، الأحزاب، النساء، الحديد، محمد، الحشر، النور، الفتح، المنافقون، المجادلة، التحريم، التوبة.

وقد نزل كثير من الآيات في هذه السورة لمناسبات بعينها، وللكشف عن مواقف محددة، ونزل غيرها لبيان حال المنافقين، والتنبيه على خطرهم، أو للتهوين من شأنهم، ولدعم المسلمين، وشد أزرهم تجاه ما يهم به هؤلاء من مكائد وما يبيتونه من شرور.

وبالتأمل في موضوعات هذه الآيات وما دارت عليه من معاني؛ فإننا نلاحظ أنها اهتمت بعلاج قضية النفاق والمنافقين، فيما يتعلق بعقيدتهم، وما يكتنفها من غموض وتردد واضطراب، وما انبنى عليها من الفساد في التصور والفساد في العمل من صدورهم عن سبيل الله وإعراضهم عن هداه، ومعصيتهم لنبيه عليه الصلاة والسلام واستهزائهم واستهتارهم بما جاء به. وما نتج عن هذه التصورات والأعمال من التواء واعوجاج في نفوس هؤلاء المنافقين.

وكذلك عالجت الآيات القرآنية الانعكاسات التي ظهرت في مواقف المنافقين العملية في عباداتهم، وما شابها من الكراهية والإعراض والتكاسل،

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ج: ١: ١٩٣ ـ ١٩٤، ينبغي أن ننبه هنا إلى أن مسألة ترتيب السور محل خلاف بين العلماء.

في الصلاة ، وفي الصدقة والإنفاق وفي الصوم ، وما عرف عنهم من التثاقل عن الجهاد ومن التعويق والتخذيل ، وكذلك أمر علاقتهم بالمسلمين وما فيها من مناورة وغش وخداع ، وصلاتهم بالمعسكرات المعادية للمسلمين وما كان منهم من المودة لأعداء الله ورسوله.. وكما كشفت هذه الآيات القرآنية محادة المنافقين لله وللرسول والمسلمين في القول والعمل ، فإنها زخرت بالتوجيهات التي تبين للرسول عليه الصلاة والسلام ، وللمسلمين طريقة معاملة هؤلاء القوم ، وبعد هذا كله فإن هناك إشارات متكررة إلى المصير المظلم الكئيب ، الذي أعده الله لهم جزاء على نفاقهم إن لم يرجعوا عنه ، ويتوبوا إلى الله سبحانه ويستغفروه.

* * *

أولاً: النفاق في العقيدة

والموضوع الأول الذي ناقشته الآيات العديدة في تناولها لمسألة النفاق هو موضوع العقيدة، فكشفت فساد عقيدة المنافقين، واضطراب إيمانهم بالله. مما يدخلهم في الضياع والتردد الذي يحرمهم من هداية الله سبحانه وتعالى. ويعرضهم لسخطه وغضبه، فهي في حقيقتها مريضة مدخولة فاسدة. قد خالطها الشك وأفسدها المرض، فهي لذلك تقيس الأمور كلها قياساً فاسداً، وتتصورها من منظار مشوش مهزوز.

ذلك أن قلوبهم وأفئدتهم خالية من العقيدة الصحيحة، وأن ما يدعونه منها هو نوع من الخداع والغش الذي يتوسلون به إلى المسلمين؛ لنيل رضاهم والمكوث بينهم، دون أن يتعرضوا لسخطهم وغضبهم؛ إن هم أظهروا حقيقة أمرهم.

ولذلك فإن أول ما أشار إليه القرآن في أول ما نزل من الآيات بشأنهم في سورة البقرة هو كشف هذا الادعاء الذي يخدعون به المسلمين، لما يلبسونه عليهم من أمرهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ـ١٠].

فقد كشفت هذه الآيات حقيقة ادعائهم، فنفت عنهم صفة الإيمان، ووصفتهم بالخداع والشك والكذب، وتذهب الآيات إلى أكثر من ذلك، فتكشف أسباب تصورهم هذا، فهم يعتقدون في دخيلة أنفسهم أن عقيدة المسلمين ما هي إلا نتيجة السفه وقلة العقل والفهم، وهم يستنكفون لذلك ـ حسب زعمهم ـ من اعتناق مثل تلك العقيدة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣]. وهم مع هذا يأخذون الأمر كله مأخذاً هازلاً في إطار من السخرية والاستهزاء: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وقد كان ذلك شأنهم لا ينتهون ولا يتعظون: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤ـ٦٥].

وموقف السخرية والاستهزاء هذا إنما قاد إليه فراغ القلب من العقيدة الصحيحة، ومن التصور السليم لمفهوم الألوهية والعبودية ومتطلباتهما، وقد عكس هذا الضياع والتشويش في العقيدة كثيراً من المواقف الزائفة التي لا يمكن تفسيرها؛ إلا إذا وضعت في إطار فساد العقيدة وخبث القصد. فالتصرفات التي تطبع سلوكهم بالخداع الذي يتصور صاحبه أنه سيفلت من حساب الله سبحانه، ومجرد التصرف من خلال هذا التصور الساذج المحدود، الذي يتخيل أنه بإمكانه خداع الله ورسوله، يكشف مدى ضلال هؤلاء وجهلهم: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩]. فهم في الواقع إنما يخدعون أنفسهم عندما يعتقدون إمكان خداع الله ورسوله. ولكنه الجهل الكامل بحقيقة الألوهية وخصائصها قادهم إلى مثل ذلك التصور الساذج الغافل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقد دل هذا بوضوح كما يذكر القرطبي رحمه الله: «إن المنافقين لم يعرفوا الله؛ إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع»[1].

ولذلك فقد كان كل همهم هو الخلاص مع المسلمين بما يلجؤون إليه من الأَيْمان الكاذبة التي يحلفون لهم بها؛ لكي يخرجوا بها أنفسهم من تبعة

---

(١) القرطبي: أحكام القرآن: جـ ١: ١٩٦.

ارتياب المسلمين في أمرهم ، ثم هم لا يبالون بعلم الله بهم ، وبحقيقة ما في قلوبهم من الشك والنفاق والكذب . . . وقد جاءت الآيات الكثيرة تكشف كذبهم هذا :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : ١٤] .

ولكن ما دامت هذه الأيمان وسيلة تقيهم غضب المسلمين وسخطهم ، فهم لا يبالون بما وراءها : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [المجادلة : ١٦] . وقد نعى عليهم القرآن قصر نظرهم ، وسوء فهمهم ، فقد كان أولى بهم أن يحرصوا على إرضاء الله سبحانه ، فذلك أصلح لدنياهم وآخرتهم ، وذلك ما ينبغي أن يهتم له العاقل الحصيف : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] .

ولما كان هذا الادعاء الكاذب من أخص خصائصهم افتتح الله السورة الموسومة باسم «المنافقون» بالإشارة إليه : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١ ـ ٢] .

وهم يَتَوَقَّوْنَ بهذه الأيمان ، ويتذرَّعُون بها في كل مناسبة :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥ ـ ٩٦] .

ويتكرر صنيعهم هذا شأن المرتاب المتشكك ، الذي تلح عليه حقيقة حاله ، فيحس كأن باطنه منكشف للناس ، فيلجأ إلى التغطية والتمويه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة : ٥٦] .

وعندما يفتضح أمرهم في بعض ما بيتوه من مكائدهم وشرورهم التي يؤذون بها المسلمين في قول أو عمل ، فإنهم يلجؤون لنفس الوسيلة . فعندما

أطلع الله نبيه عليه السلام بعزم المنافقين على النيل منه عليه السلام، وطرحه من العقبة عند مرجعه من تبوك، وما كان من تآمرهم وعزمهم على إنفاذ خطتهم الشريرة، عندما افتضح أمرهم لجؤوا إلى الحلف: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

وعندما أظهر الله سبحانه وتعالى سوء نيتهم وفساد قصدهم في اتخاذهم مسجد الضرار لجؤوا أيضاً إلى الحلف: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقد صور القرآن شدة ولوعهم بهذه الوسيلة، وكثرة اعتمادهم عليها، وركونهم إليها، فذكر أن لجوءهم إلى الحلف لشدة تمكنه منهم صحبهم حتى أثناء الموقف؛ الذي تتكشف فيه كل وسائل الخداع والتمويه - يوم مبعثهم ووقوفهم بين يدي الله سبحانه وتعالى - إنَّهم حتى حينذاك يلجؤون إلى نفس الوسيلة، ويستعملون نفس الأسلوب: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقد تولى القرآن الكريم كشف زيف هذه الأيمان التي يتذرعون بها كذباً، وأكد في أكثر من موضع كذبهم ونفاقهم، وبين حقيقة عقيدتهم:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧ ـ ٦٨].

وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بالكفر والفسق في نسق واحد:

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٣ ـ ٥٤].

وقال سبحانه وتعالى في معرض الإشارة إلى استغفار الرسول ﷺ لهم:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقال في موضع آخر: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦].

وقال أيضاً: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] وقال في سورة «المنافقون»: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال في سورة التوبة:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦].

وقال في الآية الأخرى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣ ـ ٧٤].

وعند الكلام عن الفئة الذين اعتذروا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ، واستأذنوه في القعود. تحدثت الآية في وضوح عن خلوهم من الإيمان وفراغ قلوبهم منه:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقال في سورة الأحزاب في صفة المُعَوِّقين:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

ليس هذا فحسب، بل هم في اتصافهم بالكفر يتمنون لو أن المسلمين لحقوا بهم في ضلالهم ذاك، فهم مع كفرهم دعاة إلى الكفر:

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩].

فقد وصفت هذه الآيات الكريمة السابقة «المنافقين» بأنهم فاسقون، وبأنهم كفروا بالله ورسوله، وبأنهم آمنوا ثم كفروا وأنهم كفروا بعد إيمانهم، وأنهم قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وبأنهم لم يؤمنوا، وبأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وجمعهم السياق القرآني هم والكفار في صعيد واحد.

بعد ما مضى نريد أن نتقدم قليلاً لنتعرف على مظاهر الفسق والكفر الذي اتصف به المنافقون، كما يظهر في إطارٍ مفهومهم عن الألوهية، وتصورهم لها، وموقفهم من الرسول ﷺ وهديه. ثم كيف كان رد فعلهم تجاه آيات الله، وما يتنزل على نبيه من القرآن.

أما جهلهم بالله سبحانه وتعالى، وعدم استيعابهم لحقيقة الألوهية وخصائصها، فحسبك أنهم يتصورون أنه بمقدورهم خداع الله سبحانه، وأنهم في مواقفهم كلها إنما يحسبون فقط حساب البشر، ويتحركون في إطار التعامل المحدود بين الناس في نطاق إمكانياتهم، وتصوراتهم.

فالمنافقون لا يستهدفون رضا الله سبحانه في سعيهم، ولا يتجنبون سخطه، وإن التمسوا الرضا فمن المسلمين، أو تجنبوا السخط، فمن المسلمين:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

ولو عمرت عقولهم بشيء من الفهم والإدراك لحقيقة الألوهية وخصائصها، لما احتفلوا بغير الله سبحانه، ولما حرصوا على إرضاء غيره من خلقه ممن لا يملكون معه شيئاً، ولكن كانوا على عكس ذلك تماماً:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

واعتمادهم الكذب في علاقاتهم ومعاملاتهم مع المسلمين، وقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وتصورهم أن ذلك مما سيخفى على النبي ﷺ

كل ذلك دليل على جهلهم، وسذاجة إدراكهم لحقيقة النبوة والوحي، واستمدادهما من علم الله المطلق.

وفي هذا الإطار لم يخل تعامل المنافقين مع الله سبحانه وتعالى من الخلف والكذب: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

فهم لا يرعون عهدهم مع الله سبحانه، ويمضون كأنهم ما عاهدوه ولا ألزموا أنفسهم تجاهه شيئاً؛ لشكر ما آتاهم من فضله، وما أسبغ عليهم من نعمه، وذلك في حقيقته مظهر لجهلهم، وغفلتهم، وسوء إدراكهم:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وكذلك كان شأن طائفة منهم ممن حضروا وقعة الأحزاب، تخبرنا عنهم الآيات التالية أنهم انخذلوا وانسحبوا لغير عذر غير خيسهم بالعهد، وإخلافهم لما عاهدوا الله عليه:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب: ١٣-١٥].

ولكنهم خاسوا بالعهد، وآثروا الفرار والنكوص، وقد حدث ذلك منهم؛ لأنهم في عهدهم مع الله سبحانه كانوا هازلين عابثين، فكأنهم يدخلون عقدة لا رباط فيها، ويعقدون عهداً لا سؤال عنه، ولكن هيهات.

وإنما كان ذلك كذلك لجهل المنافقين بالله، وتصورهم أنهم إنما يتحركون في فراغ حسب أهوائهم، ولا يتعاملون إلا في إطار من الألاعيب التي يرسمها لهم تحايلهم الذكي بزعمهم في إطار تعاملهم مع المسلمين حتى

لا يقعوا في سخطهم ، فيمدون لهم يداً بينما تتلمس الأخرى رضا أعدائهم ، وهم في كل ذلك لا يدركون أن التعامل في هذه الحياة إنما هو مع الله رب العالمين ، عالم السر والنجوى ، وعلام الغيوب.

والذي قاد المنافقين إلى التخاذل والفرار في مواقف الجهاد والتضحية هو سوء ظنهم بالله تعالى ، وقياسهم الأمور بمقاييس البشر ، وفي مجال التصورات الجاهلية التي لا تؤمن بالله ، ولا تحسب حساباً لنصرته وقدرته.

وتأمل هذه الآية الكريمة التالية تصور حال طائفة من المنافقين في غَزْوَة «أُحُدٍ» حين ذهبت الظنون بهم كل مذهب ، وأوقعتهم تصوراتهم الغائمة المضطربة في حالة قاسية من الهم والارتباك ، حرمتهم نعمة أَمَنَةِ النُّعاسِ التي أنزلها الله على المؤمنين من عباده بعد ما أصابهم من الغم ، فعلى حين ينعم المؤمنون بتلك النعمة ، تعيش نفوس أهل النفاق في حالة بائسة من الحيرة ، والقلق ، والغم المتصل.

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهم في هذا الظن السيئ يلحقون بأعداء الله من المشركين ، حتى إن آية سورة الفتح جمعتهم سواء هم والمشركين في سياق واحد ، في إطار من الوعيد الشديد:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

وقد كان هذا الظن فيما يبدو من الأوصاف الغالبة عليهم ، وتكرر ذكره عنهم في هذه السورة موضحاً عدم ثقتهم في وعد الله ونصره ، واطمئنانهم إلى تصورهم الخاطئ ، وظنهم السيئ:

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

ومما يستدعي التأمل هذا التعقيب المباشر على أمر هؤلاء المنافقين وظنهم:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

وهو ـ لعمري ـ كذلك فليس من شأن المؤمنين بالله سوء الظن به وبنصره، وإنما شأن المؤمنين دائماً الثقة في الله والاطمئنان إلى نصره وصدق الرجاء في وعده... وذلك هو حالهم دائماً، حال الذعر والخوف القاتل، حتى إن المنافقين في غزوة الخندق لما اشتد الأمر من حصار المشركين للمسلمين، ذهبت بهم وساوسهم كل مذهب، وغلب عليهم اليأس والقنوط، فأظهروا سوء ظنهم في الله ووعده:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

فذلك هو مبلغ علمهم بالله، وذلك هو ظنهم بالله، وهو شيء لا يليق بغير المنافقين المرتكسين في الجهل، والخذلان، والضلال.

إن محك الإيمان كما يقرره الإسلام هو التسليم لله سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ﷺ واتباع ما شرعه من الدين. ولكن المنافقين لفساد عقيدتهم، واهتزاز إيمانهم، وغيمومة تصوراتهم، كانوا يصدون عن آيات الله، ويعرضون عن أوامره، ولا يبادرون إلى الالتزام بأوامر الرسول ولا إلى تحكيم ما أنزل الله سبحانه، بل يتصرفون على العكس من ذلك تماماً، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة من أخلاق المنافقين فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠ـ٦١].

وسياق الآية هنا عام يتحدث عن ظاهرة كانت ما تزال تجد في معطيات التقاليد الجاهلية منطلقاً لها في الصدود عن الله وعن الرسول عليه السلام،

وتذكر كتب التفسير أن الآية نزلت في حق رجل يهودي ورجل من المنافقين اختصما، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وأبى اليهودي إلا رسول الله، فلما حكم بينهما وقضى لليهودي أبى المنافق من قبول الحكم والتسليم له[1]. وهو موقف يتعارض بلا شك مع حقيقة الإيمان ومقتضياته، فلا يعقل أن يدع المسلم حكم الله وحكم رسوله إلى أحكام أخرى، وأن يؤثر أحكام الطواغيت والكهان ومن في وصفهم على حكم الله ورسوله، ولن يفعل ذلك إلا منافق ظاهر النفاق مدخول العقيدة، وقد عقب السياق بعد ذلك بما حَسَمَ هذا التردد، وحدد حقيقة الإيمان التي لن تكون في غير التسليم التام لحكم الله ورسوله:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد ذكر مجاهد وغيره من رواة التفسير أن المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت من المنافقين، وأنها فيهم نزلت، وهذا اختيار الإمام الطبري أيضاً[2].

فمقياس الإيمان الذي يبرأ صاحبه من النفاق كما تصرح هذه الآية بوضوح، هو الرضا والتسليم بحكم الله سبحانه وبقضاء رسول الله ﷺ. وهو معنى أكد عليه القرآن في غير ما موضع:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فمقتضى الإيمان والتصديق بنبوة الرسول عليه السلام يعني التسليم لحكمه، واتباع أمره وطاعته فيما يأمر به، وإلا بطلت حكمة التصديق والاتباع، وأصبحت فارغة المعنى:

---

(١) القرطبي: الأحكام: ٥: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، الواحدي: أسباب النزول: ١٥٣ ـ ١٥٧، ابن كثير: تفسير: ١: ٥١٩.

(٢) القرطبي: المصدر السابق: ٥: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

الحقيقية لأمور الأمن والخوف في كل حين بما تجمع لديها من معلومات وما اعتمدته من وسائل ، وفي نطاق السياسة والخطة التي انتهجها في تلك الظروف الملابسة ، والقيادة وحدها هي التي تقدر ما ينبغي أن يذاع ويشاع ، وما ينبغي أن يكتم ويحفظ في إطار تأثير ذلك كله على معنويات الجماعة. ويذكر المفسرون أن «أولي الأمر» في هذه الآية هم الولاة أو أمراء السرايا[1].

وهناك المزيد من الآيات التي توضح موقف المنافقين من رسول الله ﷺ ، فهم كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ، ولا يعونه ، ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على وجه الاستهزاء[2]: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦] .

وهم في مواقفهم هذه التي تجسم معصيتهم للرسول والاستهزاء بالمسلمين ، يلتقون في حلف آثم مع غيرهم من أعداء الله من اليهود وغيرهم ، وهذا ما تشير إليه آيات سورة المجادلة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [المجادلة: ٨].

وقد تكررت منهم المواقف التي تجسم معصيتهم للرسول وتطاولهم على مقامه الكريم ، وقد ذكرت سورة التوبة صوراً منها ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

فمن هؤلاء المنافقين من يعيب النبي ﷺ في أمر الصدقات ، ويطعن عليه فيها ، ليس بهم دافعٌ في عيبهم إياه فيها ، وطعنهم عليه الدِّينَ بسببها ، ولكن الغضب لأنفسهم ، فإن أعطاهم الرسول عليه السلام منها ما يرضيهم رضوا

---

(١) القرطبي: الأحكام: جـ ٥: ٢٩١.

(٢) الزمخشري: الكشاف: جـ ٤: ٣٢٢.

عنه ، وإن هو لم يعطهم منها سخطوا عليه وعابوه ، وكان أن قالوا: والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ، ولا يؤثر بها إلا هواه[1].

وهذا تقييم توجيه التصورات الأرضية المحدودة المتدنية التي لا تليق إلا بالمنافقين وطبيعتهم المتردية ، وهو تقييم يكشف بوضوح العينَ التي ينظر بها المنافقون إلى شخص النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد منعهم ضلالهم وجهلهم من الارتفاع عن هذه التصورات المتهافتة إلى ما يليق بأخلاق النبوة من العدل والصدق وحسن النظر للمسلمين[2].

ومما يذكره القرآن الكريم من صور الأذى التي قصدوا بها النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وذلك قولهم عنه ﷺ أنه «أُذُنٌ» مَنْ حَدَّثه شيئاً صَدَّقه ، وأنه يسمع من كل أحد. وكان المنافقون يتوهمون ذلك عليه ، عليه السلام ، ويعتمدونه في افترائهم وكذبهم عليه. يقولون: هو أذن ، نقول ما شئنا ، ونحلف فيصدقنا[3]. وقد كذبهم الله سبحانه وتعالى ، وقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾. فهو عندما يصدق فإنه يصدق المؤمنين الصادقين ، وليس المنافقين وأهل الكفر بالله الذين يعيبون رسول الله ﷺ. ويقولون «هو أذن» من أمثالهم من مكذبيه والقائلين فيه الهجر والباطل[4].

وقد تقدم الحديث عن أذاهم للرسول عليه الصلاة والسلام في شخص زوجه عائشة رضي الله عنها ، وما روّجوه من حديث الإفك ، ومقالتهم في

---

(١) انظر القرطبي: الأحكام: جـ ٨: ١٦٦ ، الطبري: تفسير: جـ ١٤: ٣٠٠ ـ ٣٢٤.
(٢) انظر ما سبق.
(٣) الطبري: تفسير جـ ١٤: ٣٢٦ وما بعدها.
(٤) المصدر السابق: ١٤: ٣٢٨.

زواجه ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وغير ذلك من أذيتهم للنبي ﷺ[1].

والمنافقون والمرجفون لم يكونوا يسكتون ، فقد كانوا ينتهزون كل فرصة لبث سمومهم ، وكل مناسبة تعرض لإيذاء النبي ﷺ بغير حق.

أما موقف المنافقين من آيات الله وما يتنزل من الوحي ، فقد وردت الإشارة إليه في عدد من الآيات ، وهو موقف يتردد بين الإعراض والكفر والاستهزاء ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ـ١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وتصور هذه الآيات إعراضهم ونفورهم من آيات الله ، فهم لا يفقهون عن الله خطابه ولا يتصدون لفهمه ولا يهتمون له ، بل هم في شغل عنه ونفور منه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ـ٥١].

فبينما تجد المؤمنين يستبشرون بنزول الوحي ، يزيدهم ذلك قوة وتثبيتاً ، تجد المنافقين على عكس ذلك ، يزدادون شكاً وارتياباً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤] وقد قادهم إلى العمى والضلال ، وصرفهم عن تفهُّم الحق والانتفاع به؛ جهلهم وغلظتهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]. وذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] وكما قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ

---

(١) انظر ما سبق.

أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

وقال في صفة المنافقين في هذا الباب: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقد نعى الله عليهم جهلهم، وعدم فهمهم، وذكر عنهم أنهم في كثير من ضلالاتهم إنما أوتوا من قبل الجهل، وعدم الفهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. وقال عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فانعدام العلم وسوء الفهم قد قاد المنافقين إلى الإعراض عن آيات الله، وأعمى عنها أبصارهم وأفئدتهم، وأصم أسماعهم، وحرمهم نعمتها ورحمتها، بل دفعهم إلى السخرية منها والاستهزاء بها، لا يسترون بذلك ولا يخفونه، بل يفعلونه علناً، ويتخذون عليه أعواناً من الكافرين واليهود، ويتخذون لذلك المجالس والأندية، وقد أمر الله المسلمين بمقاطعة مجالسهم تلك التي يعلنون فيها كفرهم واستهزاءهم بآيات الله سبحانه وتعالى؛ ليصون آذان المسلمين عن ذلك الأذى الخبيث، وليفوت على المنافقين ما قصدوه من أذى المسلمين، والإساءة إليهم: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وهم يجمعون إلى الاستهزاء بآيات الله سبحانه الاستهانة بها، وعدم الاستجابة لما تأمر به: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

هكذا بدون عذر ولا مبرر غير النفاق والشك، فذلك شأنهم في كل

أحوالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

فهذا هو موقف المنافقين تجاه آيات الله سبحانه وتعالى، موقف الإعراض والانصراف، والصد والاستهزاء.

وإذا أردنا أن نستجمع خيوط موقف المنافقين من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله ﷺ، وموقفهم تجاه آيات الله البينات، وجدناه موقف الكفر بالله وسوء الظن به سبحانه، وعدم الثقة في وعده، والإخلاف لعهده، والإعراض عن حكمه وأمره. أما موقفهم حيال رسول الله ﷺ فكان موقف التكذيب والإساءة والأذى والاستهزاء والمعصية.

وأما موقفهم من آيات الله سبحانه فهو موقف يتردد بين الإعراض عنها، والصد عن سبيلها. والكفر والاستهزاء بها. وهم يفعلون هذا كله مع دعواهم العريضة الباطلة أنهم «مسلمون»!!! ولكن تلك دعوى كاذبة كشفها الله سبحانه وتعالى؛ فيما أنزله من الآيات التي نبهت إلى عقائدهم الفاسدة، وأقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشريرة.

وقد جعل وضعهم هذا منهم فئة من أخطر الفئات التي حملت لواء العداوة لله ولرسوله وللمسلمين، وكانت في كل أدوارها مصدر أذى للمسلمين، ومطية من مطايا التوهين والفساد في داخل بناء الجماعة المسلمة.

* * *

ثانياً: النفاق في الصلاة

وكان من الطبيعي أن يستتبع فساد العقيدة فساد العمل ، وأن ينعكس تأثير العقيدة المدخولة المهزوزة على مظاهر الحياة العملية التي يمتثلها «المنافقون» في سعيهم ، وما يصدر عنهم من نشاط وتحركات في شتى المجالات ، وفي الأفعال والطاعات.

ونبدأ هنا في حديثنا بسنام الإسلام ، وعموده الصلاة. فماذا يا ترى كان شأن المنافقين معها؟

لقد وردت الإشارة إلى صلاة المنافقين في آيتين: الأولى في سورة «النساء» وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

والآية الثانية في سورة التوبة: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤].

فهذه الصلاة ، ركن الإسلام وعموده ، وعماد الدين ، وغرة الطاعات ، وعنوان العبودية الخالصة ومظهرها ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة لأهميتها وخطرها في الإسلام ، وعلى ما فيها من تزكية النفس ، وما يتحصل بها من فيوض الرحمة بمناجاة الرب الكريم ، هذه العبادة التي جعلها الله كتاباً موقوتاً على المؤمنين ، يقف منها المنافقون موقف الكسل والتثاقل والتهاون ، فهم يغفلون عن كل ما فيها من خير وبر ، لا يدركونه ولا يعرفونه ، وهم إن قاموا إلى أدائها فلكي يخفوا على المسلمين نفاقهم ، وليلبسوا على أنفسهم من ثياب المسلمين في مظهر هذه العبادة الشريفة.

ولذلك فإن قيامهم ذلك ليس قيام المؤمن المتطلع إلى مناجاة ربه، يحركه الشوق، ويدفعه النشاط، ولكنه قيام المتصنع المتظاهر بما لا يريد عمله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ على تكرُّهٍ واستثقالٍ، وهم لا يريدون بها وجه الله سبحانه وتعالى، ولا يقصدون فيها إلى مناجاته والتعبد له، ولكنهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فهي لذلك صلاة لا تحمل في حقيقتها غير صورتها الشكلية الفارغة من الصدق ومن الحياة، ولا تحفل من حقائق العبودية وذكر الله والخشوع له والخضوع إلا بالقليل الضئيل: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد ورد الكثير من الآثار والأخبار التي تكشف في مجملها حال المنافقين تجاه الصلاة، وترسم صوراً من تهاونهم بها، وتخلفهم عن النداء وعن الجماعة، والتي تحذر المسلمين من الوقوع في هذا المحذور المهلك الذي يتلبس به أهل النفاق المخذولون. فصلاة المنافقين كما أشرنا لون من ألوان المراءاة، التي يتم لهم بها كسب اطمئنان المسلمين إليهم، وسكوتهم عنهم، يأتونها ما سهلت عليهم، ويتخلفون عنها ـ غير مبالين ولا مكترثين ـ حين يصعب إتيانها حيث يكون وقتها في الفجر المبكر، أو في العشاء المتأخر.

وقد كان عدم حضور هاتين الصلاتين دليلاً على نفاق المتخلفين عنهما. عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح فقال: «**أشاهِدٌ فلانٌ؟**» قالوا: لا. قال: «**أشاهِدٌ فلانٌ؟**» قالوا لا: قال: «**إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً. ولقد هَمَمْتُ أن آمُرَ رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة؛ فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**»[2].

---

(١) المنذري: الترغيب والترهيب ج ١: ٣٧٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم أن رسول الله ﷺ فَقَدَ أناساً في بعض الصلوات فقال: «**لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ رجلاً يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم، فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم، ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً لشهدها**»[1].

وفي مسند الربيع بن حبيب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلاً يؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**»[2].

وقد صار الحرص على حضور هاتين الصلاتين ـ الصبح والعشاء ـ مقياساً يقاس به صدق المسلم في صلته بالله سبحانه وتعالى، حتى لقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن»[3].

وكذلك الأمر في التخلف عن الجماعة عموماً، حتى لقد قال عتاب بن أسيد رضي الله عنه: «والله لا أعلم متخلفاً عن الصلاة في جماعة إلا ضربتُ عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق»[4].

وقد وردت الأخبار عن رسول الله ﷺ بخصوص الخروج من المسجد بعد النداء ـ لغير عذر ـ أنه من علامات النفاق:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يسمع النداء في**

---

(١) في رواية لمسلم، الترغيب والترهيب ج ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٢) مسند الربيع بن حبيب ج ١: ٥٠ حديث (١٨٢). والمرماة: ظلف الشاة، أو ما بين ظلفها من اللحم.

(٣) رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه. الترغيب والترهيب ١: ٢٦٨.

(٤) علي بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون: (السيرة الحلبية) ج ٣: ٦٠.

مسجدي هذا ، ثم يخرج منه لا لحاجةٍ ، ثم يرجع إليه إلا منافق»[١].

وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يخرج من المسجد أحد بعد النداء إلا منافق ، إلا لعذر أخرجته حاجة وهو يريد الرجوع**»[٢].

ومن ذلك أيضاً عدم الاستجابة لنداء الصلاة ، فالتخلف عن النداء من علامات النفاق ومظاهره ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الجفاء كل الجفاء ، الكفر والنفاق ، من سمع منادي الله ينادي إلى الصلاة فلا يجيبه**»[٣]. ولذلك فقد كان الدوام على الحضور المبكر للصلاة في الجماعة من صفات المؤمنين الصادقين. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان ، براءة من النار وبراءة من النفاق**»[٤].

ولصلاة الجمعة شأن خاص في الإسلام ، لفضلها وفضل يومها وما فيها من مظاهر الرابطة الأخوية بين جماعة المسلمين ، ولذلك فقد ورد التشديد في التخلف عن حضورها ، ونص أكثر من حديث شريف أن من تخلف عن ثلاث جمع من غير عذر لحقه وصف النفاق:

عن أبي الجعد الضمري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من ترك ثلاث جُمَعٍ تهاوناً بها طبع الله على قلبه**»[٥].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله محتج بهم في الصحيح ، الترغيب والترهيب: ج ١: ١٨٩ ـ ١٩٠. [قلتُ: كذا وَرَدَ في الأصل ، وأورده الأصبهاني في «صفة النفاق» بلفظ: «لا يسمعُ النداءَ أحدٌ في مسجدي هذا ، ثم يخرجُ منه ، إلا لحاجَةٍ ، ثم لا يرجِعُ إلا منافقٌ». (س)].

(٢) رواه أبو داود في مراسيله.

(٣) رواه أحمد الطبراني من رواية ربان بن قائد ، الترغيب الترهيب ج ١: ٢٧٣.

(٤) رواه الترمذي وقال: لا أعلم أحداً رفعه إلا ما روى مسلم بن قتيبة عن مطعم بن عمرو ، الترغيب والترهيب: ج ١: ٢٦٣.

(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحيهما ، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة رضي الله عنه قال: سمعت عمر ولم أر رجلاً منا به شبيهاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه، وجعل قلبه قلب منافق**»(١).

وفي رواية لابن خزيمة وابن حبان: «**من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق**»(٢).

وعن أسامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين**»(٣).

وبالتأمل فيما مضى من الأحاديث والأخبار يتبين أن المنافقين في عبادتهم، والصلاة رأسها، إنما يصدرون في أدائهم لها عن الرياء المحض؛ الذي لا يهتم بإتيان العبادة على وجهها الصحيح الكامل بقدر ما يهتم بأن يراه الناس يفعلها، ولذلك فحين يأمن المنافق رقابة الناس فإنه لا يأتيها، ثم هو إن جاء بها كانت فارغة من الروح خالية من ذكر الله، وإنه عند وجود مشقة في حضورها كالحال في صلاتي الصبح والعشاء؛ لشدة تبكير الأولى في الصباح وتأخير الآخرة في الليل، وصلاة الجمعة التي يتوجب حضورها ـ عند تكامل شروطها ـ من مسافات بعيدة، فإنهم لا يأتون هذه الصلوات تكاسلاً عنها، وتهاوناً بها. وإنهم لا يهتمون بالنداء للصلاة، ولا يستجيبون له، وإن فيهم من يدركه النداء في المسجد ويخرج غير مبال، لما يشق عليه من انتظار الصلاة مع الجماعة.

وقد وصف رسول الله ﷺ المنافقين فقال: «**تلك صلاة المنافقين، يجلس أحدهم يتحدث، حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرني الشيطان ثَمَّ يقوم**

---

(١) رواه البيهقي، الترغيب والترهيب ج ١: ٥١٢.

(٢) الترغيب والترهيب: ١: ٥٠٩.

(٣) رواه الطبراني في الكبير من رواية جابر الجعفي، وله شواهد وهو صحيح، الترغيب والترهيب ١: ٥٠٩ وما بعدها.

فينقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1].

وكذلك جاءت الإشارة إلى إعراضهم عن بيوت الله سبحانه وتعالى ، وإلى تأخيرهم الصلاة في قوله ﷺ: «**إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المسجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار**»[2].

وفي إطار الصورة التي ترسمها هذه الأحاديث الشريفة لموقف المنافقين من الصلاة ، نجد أنفسنا أمام قوم يعوزهم الصدق في عبادتهم ، والإخلاص في إقامتها وأدائها ، فهي في هيئتها التي يؤدونها بها تقوم على الغش والكذب والخداع ، وهي طبيعة عقيدتهم المهزوزة الزائفة.

وواضحٌ أنَّ صلاةً كهذه لن يكون لها أثر في تزكية النفس وتهذيبها ، فليست بالتي تنهى عن الفحشاء والمنكرِ ، والمنكرُ إتيانها على صورتها تلك ، بل على العكس من ذلك ، فهي تَصِمُ صاحبها بالخداع والغش الدائمين ، ولذلك فقد وردت الإشارة في الآية الكريمة إلى اطراح أعمال المنافقين ، وعدم قبولها عند الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

ولذلك ، ولكي يبرأ المسلمون من كل ما من شأنه أن يجعل عباداتهم وصلواتهم من جنس صلوات المنافقين هذه ، فقد وردت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كثيرة متضافرة ، تحثهم على الخشوع في الصلاة ، وإحسان إقامتها ، والإكثار فيها من ذكر الله سبحانه وتعالى. وهذا أمر لا نحتاج إلى الحديث فيه هنا ، فموضعه الكتب التي تحدثت في العبادات في الإسلام ، وهي أكثر من أن تحصى.

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ١: ٥٠ حديث رقم (١٨٣) ، أحمد: ٣: ١٠٣ ، مسلم: مساجد: ١٩٥ ، الترمذي: مواقيت: ٦ ، النسائي: مواقيت: ٩.

(٢) مسند ابن حنبل: ٢: ٢٩٣ ، ابن كثير: تفسير جـ ٤: ٣٦٨.

ولا نستطيع أن نختم الحديث في الموضوع قبل الإشارة إلى موقف المنافقين في بنائهم «مسجد الضرار» الذي هدمه الرسول ﷺ، وأمر بإحراقه. وقد مضى الحديث فيه قبل هذا[1]. والذي يهمنا الإشارة إليه هنا هو محاولة المنافقين تطويع العبادة ومؤسساتها لأهدافهم الخبيثة. لقد شرع الله سبحانه وتعالى الصلاة مظهراً من مظاهر العبودية، وصورة من صور الأخوة والتلاحم بين المسلمين، وسبباً ووسيلة لصهرهم في بنيان واحد، فجعل المنافقون من هذه العبادة، ومن المسجد وهو البناء الذي ينبغي أن يكون بيت الله في الأرض، ومصدر الهداية والصلاح والتقوى، جعل المنافقون من المسجد وسيلة تفريق وإضرار وإرصاد لمن حارب الله ورسوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وعلى عادتهم في قلب الأشياء وعكسها يزعمون أنهم إنما قصدوا بفعلهم ذاك الخير والإحسان؛ وذلك لتغليف غرضهم الخبيث بما يوحي لأول وهلة أنه الخير، فقد قالوا لرسول الله ﷺ: «إننا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية»[2] وهي مبررات تبدو معقولة لأول وهلة.

ولكن الله سبحانه وتعالى كشف أمرهم، وأظهر لنبيه عليه السلام غرضهم الذي بيتوه من بنايتهم تلك: فقد بنوه «ضراراً» يضاهون به مسجد رسول الله ﷺ «وكفراً» بالله لمحادتهم رسول الله ﷺ «وتفريقاً بين المؤمنين» ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا، «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل».

أي: إنهم يعدون هذا البناء لأبي عامر الفاسق الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ، فلما خذله الله لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على

---

(١) انظر ما سبق.

(٢) الطبري: تفسير: ١٤: ٤٦٨.

نبي الله ، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه ليصلي فيه ـ فيما يزعم ـ إذا رجع إليهم[1].

وكعادتهم تذرعوا بالإيمان الكاذبة؛ ليموِّهوا أمرهم ، وليتوسلوا بذلك إلى إمضاء عزمهم ، وإنفاذ خططهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى كشفهم ، وفضح أمرهم : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٧].

وجاء السياق بعد هذا يأمر النبي ﷺ بعدم القيام فيه؛ لأنه بناء ـ وإن كان يحمل اسم المسجد ومظهره ـ قد أسس على الكفر وعلى حرب الرسول ومكايدة المسلمين ، وإنما تقام أبنية الإسلام على الطهر في القصد والصدق في العمل ، وعلى تقوى الله ورضوانه. ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٨ ـ ١١٠].

وهكذا ترى ، أن وسائل المنافقين في الكيد والشر لا تتوقف عند حد ، بل إنها تمتد إلى جميع المجالات لتلبس على المسلمين دينهم وتفسد عليهم أمرهم. ويصل الأمر إلى اتخاذ شعائر الإسلام وشرائعه وشعاراته ومؤسساته منطلقاً للفساد ، والتضليل ، والتفريق.

وهكذا فإن الفيصل في أمور الإسلام ليس ما ينصب من مؤسسات ، وما يرفع من شعارات ، ويقام من هيئات ، ما لم يكن في أهلها القائمين بها صدق العقيدة ، وإخلاص العمل ، وتحري تقوى الله سبحانه وتعالى ورضوانه ، وهي عندما تتعرى من هذا تصبح ـ بلا شك ـ أدوات ضرار وتفريق وحرب للمسلمين ، ووسائل تضليل وتمويه ، ولافتات تزوِّر الباطل باسم

---

(١) المصدر السابق ١٤ : ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

الحق ، وتمكن للفساد فتقنعه ببراقع الإصلاح . . ولعل هذا أن يكون أشد وأخبث الأساليب؛ التي يحارب بها أعداء الإسلام هذا الدين وأهله.

وأنت تستطيع أن تقيس على مسجد الضرار ، هيئات الضرار ، ومؤتمرات الضرار ، وجمعيات الضرار ، ومجلات الضرار إلى آخر ذلك كله ، فترى في ذلك لمسات الفساد والنفاق ظاهرة واضحة ، لتعلم ـ من ثم ـ أن النفوس هي هي ، وأن جند الباطل ينهجون منهجاً واحداً ولو طال بهم الأمد ، وتغيرت عليهم الأزمان ، وتباعدت بينهم المسافات: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

والمَخْلَص لأهل الإيمان من هذا كله ، هو المضي على المنهج الذي رسمه الرسول ﷺ ونهجه له القرآن الكريم ، واتبعه المسلمون الأولون في كشف زيف النفاق ودحضه ، وتطهير الجماعات والمجتمعات الإسلامية من آثاره وأوضاره ، وتمزيق لافتات التمويه وإظهار حقائقها؛ حتى لا يختلط الطيب والخبيث ، والصحيح والفاسد.

* * *

ثالثاً: موقف المنافقين من الصدقة والنفقات

وكما تحتاج الدعوات في بنائها إلى العقيدة الصحيحة والمنهج المحكم والتربية الشاملة؛ التي توفر لها عناصر النمو والنجاح، وتعد لها الجند الصالح، فإنها تحتاج إلى المال في ذلك البناء، والإعداد له.

ولذلك فقد كان خط الإسلام واضحاً في تطويع المال لأغراض الدعوة ومتطلباتها، وقد حرص على أن يربي أتباعه على البذل والعطاء في سبيل إعلاء كلمة الله، وبناء الجماعة الناشئة، فكان رسول الله ﷺ يفرق الفقراء من أصحابه في مكة ـ قبل الهجرة ـ على أهل السعة ليقوموا بأمرهم، وكان أبو بكر رضي الله عنه يبذل الجزيل من ماله لشراء المستضعفين من العبيد المسلمين من مواليهم؛ ليخلصهم من العذاب، وليعتقهم بعد ذلك.

وبعد الهجرة آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فتقاسموا معهم الدور والأموال، وحث على البذل والصدقة؛ ليقيم شأن الفقراء والضعفاء من المسلمين، ثم جاءت مرحلة الجهاد والغزو وما تتطلبه من مؤن وعتاد وأزواد، فكان المال من أركانها الأساسية الذي لا يمكن أن يتم بدونه شيء منها. وكان المال يجمع مما تسمح به نفوس المؤمنين، وقد كانوا رضوان الله عليهم مثالاً للبذل وسماحة النفس والتضحية في هذا الباب، وكان هذا المجال من ميادين المحنة والابتلاء لأولئك الذين شحت نفوسهم وبخلت، فكان شحهم وبخلهم ذاك من المهلكات التي أردتهم، وألحقتهم بركب النفاق.

فمن الأمور التي أخذها القرآن على المنافقين، شحهم وبخلهم الذي منعهم من حمل نصيبهم في النفقة والصدقات.

فأول ذلك بخلهم هم أنفسهم عن النفقة في سبيل الله ، وغلبة الشح على طبعهم ، وقد جاء وصفهم بذلك في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٨ ـ ١٩].

فقد وصف الله سبحانه المنافقين بالشح في هذه الآية مرتين ، تأكيداً لهذا الوصف الذي لزمهم ، «أشحة عليكم» ، أي: بخلاء على المسلمين في حفر الخندق والنفقة في سبيل الله ـ وذلك أن الآية نزلت في غزوة الخندق ـ وهذا التفسير مروي عن مجاهد وقتادة[1]. وفسره بعضهم بأنه بخل بالنفقة على فقراء المسلمين ومساكينهم[2]. وأياً كان ذلك فهو بيان لهذه الصفة القبيحة؛ التي تمنعهم من البذل والنفقة في سبيل الله.

وقد وردت الإشارة إلى تحريضهم على الإمساك عن النفقة على المسلمين في إطار خطة تستهدف إخراج الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه من المدينة ، وإزعاجهم عن الاستقرار فيها. وهو ما جاء على لسان عبد الله بن أُبيٍّ لدى مرجعه من غزوة بني المصطلق ، وما كان من إعلانه العداء للمسلمين ، وجهره به ، فقد قال: والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش هؤلاء إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْكَ. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[3].

وكان ضمن الوسائل التي اقترحها ابن أُبي لإذلال المسلمين وتفريقهم هو إيقاف المساعدات والنفقات عن أصحاب رسول الله؛ حتى ينفضوا ، وذلك قول الله تعالى عنهم في سورة «المنافقون»: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ

---

(١) القرطبي: تفسير: ١٤: ١٥٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر ما سبق.

عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. وقد ورد في سورة التوبة مزيد من الكلام عنهم في هذا الشأن، فعندما ندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى الاستعداد لغزوة تبوك، استأذن عددٌ من المنافقين ضناً بأموالهم وأنفسهم أن يجاهدوا بها في سبيل الله. وقد حسبوا تخلفهم ذاك مغنماً يفرحون له، ويستبشرون به: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

وقد كان بخلهم ذاك، وتخلفهم عن التضحية بأموالهم وأنفسهم سبباً لهلاكهم، وإحباط أعمالهم، وسقوطهم في الامتحان في أول الطريق.. والله سبحانه وتعالى غني كل الغنى عن أموالهم ومجهودهم، وإنما هيأ ـ سبحانه ـ لعباده فرص العمل والبذل والتضحية؛ ليثيبهم عنها أضعافاً مضاعفة، ودعاهم إلى الجهاد بالمال والنفس؛ ليدخر لهم عليه الثواب الجزيل الوفير، والرحمة الشاملة الواسعة. فلما أعرض هؤلاء أعرض الله عنهم، وأحبط أعمالهم: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣ ـ ٥٤].

وقد عقب السياق بعد هذا بما يُسلِّي به الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم وأصحابه المؤمنين، حين ينظرون إلى هذه الأموال والإمكانيات البشرية تعطل عن أن توظف في سبيل إعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، فيحزنون ويتألمون، لكن الله سبحانه وتعالى يبين لهم أن الأموال والأولاد إن فارقها التقوى والعمل لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه تصبح مصدر مشقة وعذاب في الدارين، فهي وسيلة إلى رضوان الله وثوابه حين تجند في سبيل الله، وهي مصدر شقاء وتعب وعذاب حين ينصرف المرء إليها وحدها جاعلاً تحصيلها، والحفاظ عليها كل همه وسعيه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] ويقول في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

وهناك صنف آخر من المنافقين قد ينفق حين يجد نفسه في أمر يستلزم النفقة والبذل، ولكنه يفعل ذلك بنفس مكرهة، فينفق عن غير طيب نفس ولا رضا بالنفقة، جاء ذلك في صفة الأعراب الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ٩٧ ـ ٩٨].

فهذا الصنف «يعد نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده مَغْرَماً؛ يعني: غرماً لزمه لا يرجو له ثواباً، ولا يدفع به عن نفسه عقاباً»(١).

ليس هذا فحسب، إن هؤلاء لا يكتفون بالبخل بأموالهم، وتحريضهم غيرهم على الإمساك وعدم النفقة، بل يتجاوزون ذلك إلى السخرية من المسلمين، عندما يرون منهم إقبالاً على النفقة باليسير الذي في أيديهم، ويشككون في بذل ذوي السعة منهم من ينفق المال الكثير الجليل، فيصفونه بالرياء شغباً وحسداً وإمعاناً في الفساد: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩]. قال الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن قتادة وغيره:

«حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت نصفها لعيالي. فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت**» فبارك الله في مال عبد الرحمن؛ حتى إنه خلف امرأتين يوم مات، فبلغ ماله لهما مئةً وستين ألف درهم. وتصدق يومئذ عاصم بن عدي بن العجلان بمئة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري

(١) الطبري: تفسير: ١٤: ٤٣٠، القرطبي: تفسير: ٨: ٢٣٤.

بصاع من تمر وقال: يا رسول الله بِتُّ ليلتي أجُرُّ بالجرير[1] الماءَ حتى نلتُ صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لأهلي آتيك بالآخر؟ فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله غنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يذكر نفسه»[2].

ويتحدث القرآن عن نموذج آخر من هؤلاء ممن أرداه بخله، وأدى به إلى النكوث عن عهده لله، وأعقبه نفاقاً في قلبه. هذا الصنف هو ذلك الإنسان الذي يبدأ بداية سليمة حسنة مع ربه، ثم يصبح ماله - حين يثري - سبباً لهلاكه؛ لأنه ينسى منطلقه الأول، وما كان من أفضال الله سبحانه عليه، وما عرفه من حق الإسلام وأهله ودعوته في نفسه وماله، ينسى ذلك كله، ويصبح عبداً لماله يثمره وينميه ويحرص عليه ويبخل به.

وهذا الصنف هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: ٧٥ - ٧٧].

ذكر الواحدي وغيره[3] في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري[4] أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني

---

(١) الجرير: الحبل.

(٢) الواحدي: أسباب نزول القرآن: ٢٥٥، ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ١٩٦، الطبري: تفسير: ١٤: ٣٨٧.

(٣) الواحدي: أسباب نزول القرآن: ٢٥٢ الطبري: تفسير: ١٤: ٣٧٠ - ٣٧٢، السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، بهامش الجلالين ص: ٢٧٤.

(٤) ويرى ابن حجر أن هذه القصة لا تصح عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي شهد بدراً واستشهد بأحد؛ لأن رسول الله ﷺ قال: لا يدخل النار أحدٌ شهد بدراً والحديبية. حكى ﷺ عن ربه أنه قال لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم، فمن تكون له هذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره. الواحدي: أسباب النزول. تحقيق السيد أحمد صقر، تعليق: ٣ ص: ٢٥٢. =

أنظر فيه ، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي عليه السلام ، فلما رآهما قال: «**يا ويح ثعلبة**» ، قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، وأخبروه بالذي صنع ثعلبة ، والذي صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ـ٧٧][1].

قال القرطبي: وثعلبة بدري أنصاري ، وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ، فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم[2].

وقد أوردنا هذا الخبر على ما فيه من الضعف مستأنسين به في الدلالة على معنى الآية الكريمة ، مقتدين في ذلك بمن أورده من أصحاب التفسير ، وفي الخبر عبرة وعظة ، وهو في مجمله يرسم صورة تتكرر في حياة البشر ، وتدل على بعض أحوالهم التي تقررها هذه الآية الكريمة.

وقد روى القرطبي عن الضحاك أن الآية نزلت في رجال من المنافقين: نَبْتَلِ بن الحارث وجَدِّ بن قيس ومُعَتِّب بن قُشَيْر. ثم عقب على هذا بقوله: «وهذا أشبه بنزول الآية فيهم ، إلا أن قوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل ، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٧٧][3].

ولقد كان البخل والشح وكراهة النفقة من صفات المنافقين الغالبة عليهم ، وقد امتحنهم الله وابتلاهم ، فخسروا الامتحان ، ووقعوا في محنة

---

(١) الواحدي: أسباب نزول القرآن: ٢٥٢ وما بعده.
(٢) القرطبي: تفسير: ٨: ٢١٠.
(٣) المصدر السابق.

البلاء ، وغلب عليهم شحهم ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ . فصار هذا الشح والبخل بالمال من صفاتهم؛ التي وسمهم بها القرآن الكريم: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧]. فَهُم ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ ﴾ ، وهم ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ ، وهم إن فعل أحدهم ذلك فإنه ﴿ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ ، ثم هم يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، و﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ ﴾ ، تلك أوصاف المنافقين ، وحالهم في شأن باب من أهم أبواب الجهاد والتضحية: الجهاد بالمال. وإذا كان شأنهم هكذا في أمر المال ، فهم بالجهاد بالنفس أشد بخلاً ، وأكبر نكوصاً ، وهو ما سنتحدث عنه فيما يأتي.

* * *

رابعاً ـ موقف المنافقين من الجهاد

لقد سبقت الإشارة إلى دور المنافقين ومواقفهم من الجهاد عند الحديث عن المظاهر العملية لتحركات المنافقين، بما يغني عن تفصيل الحديث في الموضوع مرة أخرى[1]. والذي نقصد إليه في هذه الصفحات هو عرض ملامح هذا الموقف؛ كما تصوره الآيات القرآنية الكريمة، وكما يبدو فيما يمكن أن نصفه «بصورة النظرية».

وموقف المنافقين من الجهاد هو ـ في اختصار ـ موقف «التخلف، والنكوص، والتثبيط، والتخذيل». وقد كان موقفهم ذاك في صُوَرِهِ التي تكرر بها في مراحل الصراع بين الإسلام وأعدائه من أشق وأشد المواقف على كتيبة الإسلام، وإن كان من وجه آخر، مصدر تصفية وتنقية وتمحيص، حتى تصفو الجماعة المسلمة من كل غبش وكدر وفساد.

وكان الجهاد فريضة امتحان وابتلاء، سقط فيها المدعون، واجتازها المؤمنون الصادقون بنجاح ضمن لهم الفوزين، ونالوا الفضلين: النصر والشهادة.

ولما كان الجهاد دعوة للتضحية بأغلى ما يمكن أن يجود به الإنسان، فإن الاستجابة لفرض القتال لم تكن واحدة، وسرعان ما ظهرت النفوس المترددة التي تؤثر العافية، وتركن إلى الدعة، ولا تنشط إلى مثل هذه التضحية الكبيرة، وقد صور القرآن الكريم هذه النماذج في أكثر من آية:

---

(١) انظر ما سبق.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٨].

فهذه ملامح نفر من الناس لم يتمكن الإيمان من نفوسهم، فيبصروا الحقائق الكبيرة التي جاء الإسلام يركزها في نفوس الناس، وهي أن الله وحده سبحانه هو النافع الضار، وأنه وحده المؤثر في الحياة والإحياء، فهو وحده يجب أن يخشى، وأن خشية غيره معه فسادٌ في التصور، وضعف في الإيمان.

ولكن هؤلاء المنافقين لا يرتفعون إلى إدراك هذه الحقيقة، فهم ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً.. ﴾ ثم هم لا يفقهون من أسرار الحياة أظهرها وأوضحها، وهو أنها زائلة فانية، قليلة المتاع، محدودة الأمد، وأن الفوز والخير كل الخير لمن سعى للآخرة، واتخذ سبيله للفوز برضا الله سبحانه وتعالى.. إنهم يتعلقون بمتاع هذه الحياة القليل الضئيل، ولا يتطلعون إلى وراء ذلك، ولذلك فإن نفوسهم تنفر من القتال، وتتخاذل عنه؛ لظنها أنه سيكون السبب لقطع ذلك المتاع وإنهائه.

وتتكرر صورة هذا الصنف مرة أخرى في سورة «محمد» عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠].

فهذا هو موقفهم من فرض القتال، موقف المتشبث بالحياة، المتعلق بأسبابها، موقف الشخص الذي لا يجد من نفسه أدنى تطلع للتضحية بنفسه أو تعريضها لخطر الموت، يحصر همه كله في هذه الحياة الدنيا ومتاعها، ولا يلتفت إلى ما وراء ذلك، ولذلك فقد كان أثر فرض القتال على هذا الصنف من الناس بالغ الشدة والثقل، وكان كل تجاوبهم معه هو هذه النظرة الهالعة البائسة المتشبثة بالأرض والتراب.

وهكذا فقد جاء فرض الجهاد مصدر تصفية وتمحيص يكشف عن معدن

المؤمن المجاهد الصادق، والمنافق المتردد الكاذب. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧] وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

وعلى امتداد الفترة ما بين نزول فرض الجهاد إلى أن تحقق الفتح والنصر، تعرض الآيات القرآنية الكريمة موقف المنافقين في ذلك الصراع الدائر، وما كان من أمرهم فيه، وفيما يلي سنورد ملامح من هذ المواقف كما جاء بها القرآن؛ لترسم لنا هذا النموذج الخانس المتردد، ودوره في ذلك الصراع المتصل.

يذكر لنا القرآن أن موقف المنافقين كان غالباً هو موقف المتفرج الذي يقف على بُعْدٍ، ينتظر نتائج الصراع الدائر بين المسلمين وأعدائهم، أو بمعنى آخر، هو موقف طرف ثالث يشهد صراعاً بين معسكرين، وهو لا يريد أن يحسم أمره بالانضمام إلى أحدهما وقطع صلته بالثاني، ولكنه يرقص بينهما كالبهلوان؛ ليضمن لنفسه مكاناً مع الغالب منهما حسب زعمه.

وقد وردت صورتهم هذه في كتاب الله سبحانه وتعالى في غير ما موضع، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢ ـ ٧٣].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠ ـ ١١].

ووصفهم بهذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠ ـ ٥٢]. وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

ومن خلال النصين الأخيرين يضيف المنافقون إلى موقف المتفرج المتربص، موقف الشامت الحاسد الذي تتأجج في دخيلة نفسه نيران الحقد والكراهية لهذه الفئة المؤمنة؛ التي جرت عليهم موقفهم الحرج المتردد.. ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾. فهم يستاؤون من كل خير يناله المسلمون، وينتظرون الأحداث على أمل أن يلم منها ما يكون فيه هلاك المسلمين، وخسارتهم.

وهم قد نهجوا منهج الإبطاء والتخلف والتربص والترقب، يقصدون منه عدم التورط في موقف حاسم، يؤدي بهم إلى خسارة محتملة في أحد الجانبين، وهم ـ مع هذا ـ يعملون جهدهم ألا يفوتهم شيء من الغنم الذي يحرزه أحد الفريقين... فحين يتعرض المسلمون لمصيبة أو هزيمة قال قائلهم: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾.. أما إذا كانت الثانية، ونال المسلمون نصراً أو مغنماً فهناك الادعاء العريض ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾. ولكن الصراع الدائر المتصل بين المسلمين وأعدائهم من المشركين واليهود، والذي لم يفتر أبداً، كشف كل هذا الالتواء في مسلك المنافقين، وظهر ترددهم وتلكؤهم وتخاذلهم واضحاً صريحاً، ولا يمكن إخفاؤه ولا التستر عليه، وإن كثرت الأعذار التي يدعونها ويلفقونها.

ففي «أحد» اعتذروا باستبعاد حدوث القتال، وإن كان سبب تخلفهم عن

رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فهذا عذرهم، وهو عذر متهافت هزيل، وما أدراهم ألا يكون قتال؟! ثم إن كان الأمر ـ كما زعموا ـ مجرد رحلة استطلاعية لا قتال فيها ولا حرب، فأي بأس عليهم في أن يحضروها، ويريحوا أنفسهم من ذلك الاعتذار المتهافت الذي لا تقره أخلاق الفروسية والشهامة؟! لقد كشف الله سبحانه وتعالى حقيقة عذرهم ذاك، وأظهر ما كانت تكنه ضمائرهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقد أضاف هؤلاء إلى جريمة قعودهم وتخلفهم: الشماتة والتبجح، فنسبوا شهادة من استشهد من المسلمين في الجهاد إلى الجهل وعدم الانتصاح، «الذين قالوا لإخوانهم، وقعدوا، لو أطاعونا ما قتلوا». فهم بتلك الموازين المعكوسة المقلوبة، يرون الشهادة في سبيل الله ـ وهي أغلى وأعلى ما يتمناه المؤمن الصادق، يرون ذلك مصيبة فادحة، يتجنبها العاقل الأريب!!.

وهو فهم لا يمكن أن يصدر إلا عن قلوب مريضة لم تعرف حقيقة الإيمان الصحيح، ولا الإدراك السليم.

وتكررت من المنافقين مواقف مماثلة في أكثر من غزوة، وأكثر من مناسبة، وقد نزل القرآن يكشف حقيقة نواياهم، ويفضح أمرهم، ويعرض منهم نماذج للخزي المجسم الكريه.

ومما يذكر الله عنهم في غزوة الخندق، قوله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ

أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ١٨ ـ ٢٠].

فالمنافقون ـ هنا كما تصورهم هذه الآيات ـ هيكل من البناء الفاسد الذي تجتمع مقومات تكوينهم النفسي والأخلاقي لتجعل منهم مصدر تخذيل وتعويق، فهم يخذلون غيرهم ليكونوا مثلهم، وهم إن ألجأهم الأمر إلى القتال واضطروا إليه، لم تكن منهم نكاية في العدو ولا كان لهم من القتال شأن... قد تمكن منهم الشح والجبن، فبخلوا بالمال وبالنفس، فإذا طرأ سبب من أسباب الخوف أخذ منهم الهلع أقطار نفوسهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

وهي صورة معبرة تكشف حقيقة هذه النفوس الهزيلة المهزوزة المهزومة.

وقد أبرز السياقُ بعد هذا الجانبَ الآخرَ لسلوك هذه النفوس المهزوزة المتدنية؛ التي تذوب خوفاً وهلعاً حال الشدة والبأس، ولا تكاد تتماسك لأدنى خطر عابر، ولكنها تستأسد في وقاحة متناهية عند انجلاء غمة الخوف، وذهاب أسبابه. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؟!

جاء في تفسير القرطبي: «قال قتادة: ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنائم، يقولون: أعطنا، أعطنا، فإنَّا قد شهدنا معكم. فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. قال النحاس: هذا قول حسن لأن بعده: «أشحة على الخير». وقيل المعنى: بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم. وقال القتبي: المعنى آذوكم بالكلام الشديد»[1].

وبكل هذه المعاني التي جاءت في التفسير وصفهم القرآن الكريم في غير ما موضع. وقد عقب سياق الآيات على مسلكهم ذاك، فأرجعه إلى سببه الأصيل وباعثه الحقيقي، وهو انعدام الإيمان، وخلو قلوبهم منه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ

---

(١) القرطبي: التفسير: ١٤: ١٥٤.

يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٩ ـ ٢٠].

فهم لفرط خوفهم وجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينصرفوا، وقد كانوا انصرفوا، ولو يرجع الأحزاب إليهم للقتال لتمنوا أنهم كانوا مع الأعراب في باديتهم، بعيداً عن موقع القتال، خوفاً من القتل وتربصاً للدوائر، يسألون عن أخبار المسلمين من غير حضور للقتال لفرط الجبن والخوف... وهم حتى لو كانوا مع المسلمين شاهدين القتال ما قاتلوا إلا قليلاً، أي: رمياً بالنبل والحجارة من غير مباشرة للقتال.. وأصل ذلك كله هو ما نصت عليه الآية الكريمة من فراغ قلوبهم من الإيمان: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ﴾. وقد ورد تفصيل تخلفهم ونكوصهم عن النفقة والجهاد في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع للهجرة، وكان يقال لها الفاضحة؛ لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين(١).

وقد ندب الرسول عليه السلام الناس إلى هذه الغزوة، وأعلن عن وجهته التي يريد؛ ليأخذ الناس أهبتهم لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو، وأمر ـ عليه السلام ـ الناس بالجهاز، وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم، وحض أهل الغنى على النفقة، والحمل في سبيل الله.

وقد حفظت السيرة من مسارعة الصحابة رضي الله عنهم، ونشاطهم للبذل والجهاد أروع الصور وأعظمها، وفي مقابل ذلك كان موقف أهل النفاق ـ في كل وجوهه ـ أبشع صور النكوص والتخاذل، وقد تحدثت آيات سورة التوبة عن موقفهم ذلك في تفصيل كبير، ورسمت فيه صورة دقيقة كشفت فيها أمر المنافقين وما كان منهم آنذاك. وبدلاً من أن يستجيب المنافقون لداعي الجهاد، إذا بهم يستأذنونه ﷺ في التخلف عنه، والقعود في بيوتهم، وبين أهلهم حين خرج إلى تبوك. وقد كان استئذانهم ذاك مجرد محاولة لإخفاء

---

(١) السيرة الحلبية: ٣: ٩٩ وما بعدها.

مظهر شكلي على موقفهم يظهر أن تخلفهم ذاك لم يكن عناداً وتملصاً، ولكنه كان مشروعاً بإذن من القائد نفسه ﷺ.

وقد كشف الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام بواعث ذلك التخلف مبيناً أنه لو كان الأمر أمر غنيمة حاضرة، أو موضع سهل قريب لنفروا، ولكن الموضع بعيد، والسفر شاق، والزمان زمان حر وقيظ، فآثروا الراحة والعافية، وكانت تبطئة من عند أنفسهم وزهادة في الخير: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢ ـ ٤٣].

وقد كشفت الآية أنهم كاذبون في ادعائهم عدم الاستطاعة، رغم تأكيدهم دعواهم تلك ـ على عادتهم ـ بالأيمان التي يحلفون بها؛ لأنهم كانوا للخروج مطيقين، بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال مما يحتاج إليه الغازي في غزوه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان، وقوت الأجسام[1].

وقد عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن لهم في التخلف عنه من المنافقين، وأعلم أنه ما كان ينبغي له أن يأذن لهم في التخلف عنه حتى يعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون الإذن لأصحاب الأعذار على علم بعذرهم، ويعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقاً وشكاً في دين الله. وذلك حتى تتحقق حكمة الابتلاء بمثل هذه المناسبات التي يتبين فيها المدعي من الحق، والصادق من الكاذب.

وقد بينت الآيات بعد ذلك أنه لا يستأذن في التخلف عن الجهاد بغير عذر إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر، أما الذي يصدق بالله ويقر بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب؛ فإنه لا يستأذن في ترك الغزوة وجهاد أعداء الله بماله ونفسه.

---

(١) القرطبي: تفسير: ١٤: ٢٧٢.

أما الذين لا يصدقون بالله، ولا يقرون بتوحيده، وداخل قلوبهم الشك في حقيقة وحدانية الله، وفي ثوابه أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه؛ فهم يعيشون تحت وطأة شكهم ذاك في ظلمة الحيرة، لا يعرفون حقاً من باطل، ولا يتأتى لهم الرأي الصحيح، فمن ثَمَّ فهم لا يبصرون ما في الجهاد من خير وفضل، فينتحلون الأسباب للتخلف عنه: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

وقد ذكرت الآيات بعد هذا أن الله سبحانه وتعالى ثبط المنافقين، وكره انبعاثهم للقتال لحكمة أرادها من ذلك، فلا فائدة ترجى من خروجهم، بل إن قعودهم أفضل وأنفع، فهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين إلا مشقة وبلبلة وخبالاً بسبب مسلكهم الخبيث الملتوي، وشغبهم المرهق المتصل على المسلمين حتى في أحرج الأوقات، ولحاولوا جهدهم إيقاع الفتنة بين المسلمين بما درجوا عليه، وتعودوه من أساليب الشغب والأذى.

وقد كان ذلك شأن المنافقين مع نبي الله والمسلمين قبل ذلك في أكثر من موقف، وأكثر من مناسبة، ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٨].

ولا ينتظر من قوم هذا شأنهم أن ينشطوا للجهاد، ويتهيؤوا له وقد عدموا الحافز الأساسي لذلك، وهو الإيمان بالله ورسوله وما جاء به، ولذلك فقد ظلت مقاييسهم كلها أرضية تقيس الأمور في الحرب والسلم بمقياس المنفعة القريبة القليلة، حتى أنهم ليعدون الراحة والدعة والخفض مغنماً يفرحون به ويتخلفون لأجله عن الجهاد في سبيل الله، ثم يرون ذلك من حسن التدبير؛ لأنه يحفظ لهم أموالهم وأنفسهم ـ بزعمهم ـ ويجنبهم ما يخشونه من ألوان

العنت والمشقة. وهي نظرة أقل ما يقال فيها أنها محدودة الأفق، قريبة الغور، شديدة الضحالة، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وهذا بابٌ أَظْهَرُ من أن نُفيض في استقصاء ملامحه هنا، وفيما تقدم ما يصور للقارئ موقف المنافقين من فريضة الجهاد. وهو موقف متخاذل متردد، قوامه التخلف عن الجهاد، وحجب كل ما يملكون من قوى مادية ومعنوية عن الجماعة المسلمة في ساعات هي أشد ما تكون حاجة إليها، وتخذيل المسلمين، والإرجاف بهم، والشغب عليهم، وإدخال الخبال والفتنة في صفوفهم، وتحريض أعدائهم عليهم، وإلقاء المودة إلى هؤلاء الأعداء[1]. وهذه مواقف أقل ما يقال في الواحد منها أنه خيانة لله ورسوله وللمؤمنين، فما بالك إذا اجتمعت كلها في صعيد واحد؟!

* * *

(١) انظر ما سبق: ٣٢ ـ ٣٤.

الفصل السادس
الملامح العَامَّة لظاهِرة النِّفَاق

وإذا أردنا أن نستجمع الملامح العامة التي تدخل في الإطار العام لظاهرة النفاق ، فإننا نجد أنفسنا أمام جماعة مدخولة من الناس تعلن الإيمان وتبطن الكفر ، ويخالف ظاهرها باطنها ، تقودها طموحات سياسية خاصة ، كانت قد تبلورت قبل مجيء الإسلام إلى المدينة واسْتِتْبَابِهِ فيها ، فأبت أن تنصهر في البناء الجديد ، أو أن تأخذ سبيلها في إطاره.

ولكنها كانت تسلك مسلك المعارض الحذر؛ الذي راهن في إعادة بناء شخصيته وأمجاده على اضمحلال بناء الإسلام الجديد وسقوطه ، ولذلك فقد صاحب ذلك التربص والانتظار من قبل المنافقين تحركات ومواقف تعمل في مجملها على المساعدة على الإطاحة ببناء الإسلام وهدمه ، وقد قاد هذه الطائفة عبد الله بن أُبي ابن سلول؛ الذي عرضنا ـ فيما سبق ـ صوراً من نشاطه وتحركاته.

وقد كان ابن أُبي يجسم نموذجاً للشخص المتردد الذي ضاع بين تطلعاته؛ إلى ملك كان على وشك أن يسلم إليه ، وبين إحجامه عن الانسجام مع البناء الجديد للمجتمع المسلم الناشئ. فذلك التطلع إلى الرئاسة منع ابن أُبي من استيعاب أبعاد الدعوة الجديدة؛ التي جاءت في أول الأمر تلتمس جواراً لدى أهل يثرب ، فما برحت أن استخلصتهم لنفسها جنوداً وأنصاراً.

وبدلاً من أن يمثل أمر حماية هذه الدعوة الجديدة جزءاً من التحرك الجانبي في أحداث الحياة السياسية والاجتماعية ليثرب ، أصبح جزءاً من هذه الدعوة ما زالت به حتى اتخذته منطلقاً إلى الاستقرار والانتصار.

وبينما كانت جموع المهتدين من الأنصار وأبنائهم يحلقون في أجواء الوحي والنبوة، وينعمون بأنوار رسالة الإسلام، ويعيشون أبعاد الرسالة الإلـهية بمسؤولياتها الكاملة في تفان وإيثار، كان عبد الله بن أُبي ينظر إلى النبي ﷺ وأصحابه على أنهم فئة طارئة جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش، سوف ينتهي بانتصار محمد عليهم أو بانتصارهم عليه، أو بصورة أخرى من صور الحل الذي ينجم عنه انتهاء هذه القوة الطارئة، وعودة المياه إلى مجاريها، وابن أُبي إلى رئاسته ومكانته.

فكان من سياسة ابن أُبي التي نهجها لنفسه أن يحتفظ بمقومات الرئاسة، فكان يظهر استخفافه بأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلم يكن يستشعر له إيمان التابع المصدق للرسول المؤتمن، وحين أبى قومه إلا الدخول في الإسلام دخله هو على نفاق وضغن، وحرص دائماً أن يضع نفسه في الموقع الذي يؤكد له القيادة والرئاسة والفعالية، ولم يقنع أن يربط مصيره بمصير الرسول عليه السلام ومصير الدعوة الإسلامية وأتباعها، ولم تكن عنده ثقة في انتصارهم وغلبتهم، فكان يحذر الدوائر ويحتاط لها، ويؤكد ارتباطه بحلفائه من اليهود ويحميهم ويقف إلى جانبهم.

وقد كان ابن أُبي رأساً لتيار القوى المترددة التي كانت تكن لرسول الله ﷺ العداء، وتتربص به الدوائر وتحاربه بكل أسلوب خفي، ولكنها لم تجرؤ على حرب معلنة ضده؛ لأن الإسلام استطاع ـ وهو يمتلك قلوب الأنصار وأرواحهم ـ أن يحدث خلخلة حقيقية في ذلك المجتمع، وأن يضم إلى صفوفه الأكثرية الغالبة، وأن يمزج بين أبنائه من مختلف القبائل والبيوتات، فلم يَصْفُ للمعارضة سَنَدٌ ترتكز إليه، فكانت في موقفها المتردد الخانس تصدر عن إدراك حقيقي لقوة الإسلام، وتغلغله في أوساطها.

وكان تيار المنافقين في المدينة يمثل ـ كما قلنا ـ طائفة من الناس المدخولين في عقيدتهم؛ ممن غلبت عليهم تصوراتهم وعقائدهم القديمة لشدة الفهم لها، ولامتداد جذورهم فيها، فلم يعرف نفاق في الشباب إلا

في شخص واحد[1]، وقد غلب تيار الإسلام على هؤلاء، وأعجزهم عن الوقوف في وجهه، فآثروا التظاهر به في علانيتهم مبيتين الكفر في سرائرهم، فهم لا يدخرون وسعاً في حربه بوسائلهم الملتوية الخفية، ولا يفوتون فرصة لتوهين المسلمين والاستهزاء بهم، وإشاعة الفوضى فيهم، تارة بخذلان المسلمين والإرجاف بهم وتقوية الأعداء عليهم، وتارة بنشر الإشاعة وقالة السوء في المجتمع المسلم، وأخرى بإظهار التكذيب للرسول عليه السلام، وإنكار ما يجريه الله على يديه من آيات ومعجزات، ومع ذلك كله موالاة أعداء الله ورسوله من المشركين واليهود، وموادتهم وتحريضهم على حرب الله ورسوله.

وقد عرضنا فيما تقدم لمواقفهم كما رسمتها أحداث السيرة، وكما بينها القرآن الكريم. ولا بأس باسترجاع ملامحها هنا في اختصار شديد.

أما في إطار العقيدة وما يتعلق بتصوراتهم عن الله والألوهية وعن النبي ﷺ ورسالته، وعن آيات الله وهداه، فقد كان موقفهم من الله سبحانه موقف الكفر وسوء الظن به ـ سبحانه ـ وعدم الثقة في وعده، والخلف لعهودهم التي عاهدوا الله عليها، والإعراض عن حكمه وأمره. أما موقفهم تجاه رسول الله ﷺ فقد كان موقف التكذيب والإساءة والأذى والاستهزاء والمعصية.

ثم موقفهم من القرآن الكريم ومن آيات الله تعالى، فهو يتردد بين الإعراض عنها، والكفر والاستهزاء بها. وهم يفعلون هذا كله مع دعواهم الكاذبة الباطلة أنهم مسلمون. ولكن تلك الدعوى قد كشف بطلانها حالهم بما ظهر منهم من أفعال وأقوال، وكشفها الله سبحانه وتعالى فيما أنزله من الآيات التي نبهت إلى عقائدهم الفاسدة، وأقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشريرة.

أما بالنسبة لما يظهرونه من عبادات يُوَرُّون بالالتزام بها، فإنهم في

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ط. السقا وآخرين جـ ٢: ١٧٦.

عباداتهم ـ وأهمها الصلاة ـ إنما يصدرون عن الرياء المحض الذي لا يهتم بإتيان العبادة على وجهها بقدر ما يهتم بإظهارها شكلاً أمام الناس؛ ولذلك فإن الشخص من هؤلاء حين يأمن رقابة الناس فإنه لا يأتيها، ثم هو إن جاء بها كانت فارغة من الروح خالية من ذكر الله. أما إن كان في الإتيان بها شيء من المشقة فإنهم لا يأتون بها، تهاوناً بها، وتكاسلاً عنها. ولم يَفُتْهم أن يُطوِّعوا مؤسسات العبادة نفسها لأهدافهم الخبيثة؛ التي ترمي إلى حرب المسلمين، والتفريق بينهم، وإشاعة الفوضى في صفوفهم، وإدخال الضرار عليهم.

وحين يكون المطلوب من المنافقين هو البذل في سبيل الله والنفقة في أبواب البر والجهاد، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، فإن البخل والشح وكراهة النفقة هو صفتهم الغالبة التي تحول بينهم وبين البذل والنفقة، وقد امتحنهم الله تعالى، وابتلاهم، فخسروا الامتحان، ووقعوا في محنة البلاء وغلب عليهم شحهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧] فصار هذا الشح بالمال من صفاتهم التي وسمهم بها القرآن الكريم، فهم «يقبضون أيديهم» وهم ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾. وهم ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. وإن فعل أحدهم وأنفق فإنه ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ فهذا حال المنافقين في باب من أهم أبواب التضحية والجهاد: الجهاد بالمال.

وإذا كان شأنهم هكذا في أمر المال فهم بالجهاد بالنفس أشد بخلاً وأكبر نكوصاً، فقد كان موقفهم في الجهاد موقفاً متخاذلاً متردداً، قوامه التخلف عن القتال، وحجب كل ما يملكونه من قوى مادية ومعنوية عن الجماعة المسلمة، في ساعات هي أشد ما تكون حاجة إليها، وتخذيل المسلمين، والإرجاف بهم، والشغب عليهم، وإدخال الفتنة والخبال في صفوفهم، بل وتحريض أعدائهم عليهم، وإلقاء المودة إلى هؤلاء الأعداء.

إذاً فقد كانت ملامح هذه الفئة من الناس ملامح متميزة المعالم واضحة الحدود، تشكلها مواصفات خاصة في إطار واضح محدد، تكون في مجموعها ظاهرة النفاق والمنافقين؛ التي يتحكم في إظهار شخصيتها

تصورات خاصة للعقيدة ، وطموحات خاصة في العمل السياسي وفي الإطار الاجتماعي ، ومظاهر خاصة في السلوك؛ ولذلك فقد حرص الإسلام على بيان ملامح هذه الفئة في إطار مواصفاتها المحددة ، وجاء القرآن الكريم بأوصافها دقيقة صريحة. وقد اهتم القرآن بالجانب الوصفي للظاهرة على أنها ظاهرة تتكرر كلما اجتمعت لها تلك الأوصاف أو بعضها. وكذلك كان الأمر بالنسبة لحديث الرسول عليه السلام.

ولذلك فقد كان منهج الإسلام في كشف هؤلاء لا يتجه إلى أشخاص بأعيانهم إلا في إطار محدود ، وعندما كشف الله لنبيه نفراً منهم وعرفهم له ، فقد احتفظ بذلك لنفسه ، وائتمن على العلم بهم واحداً من أصحابه فقط هو حذيفة بن اليمان ، الذي كان يعرف بصاحب سر رسول الله[1].

وقد أشار القرآن في صراحة إلى أن معرفة هؤلاء إنما تكون في معرفة سلوكهم ومواقفهم ، وقد جاءت سورة «التوبة» بشيء كثير من ذلك ، حتى إنها كانت تعرف «بالفاضحة»؛ لأن الله سبحانه وتعالى كشف فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون[2]. وقال سبحانه وتعالى في سورة محمد: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ـ٣٠] قال ابن كثير: «يقول تعالى: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة» فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا كانت تسمى «الفاضحة».

والأضغان: جمع ضغن ، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ [محمد: ٣٠] يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم

---

(١) انظر ترجمة حذيفة رضي الله عنه في أسد الغابة. وفي الاستيعاب.

(٢) الطبري: التفسير جـ ١٤: ٣٣٢.

عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه ، وحملاً للأمور على ظاهرة السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعنى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول»[١].

ولعله من المفيد أن نورد هنا المزيد من الآيات والأحاديث التي أظهرت معالم هذه الفئة ، وهذه الظاهرة ، مما فاتنا إيراده فيما تقدم من مباحث.

من ذلك قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] فتصفهم الآية بأنهم ـ رجالاً ونساء ـ صنف واحد ، وأن أمرهم واحد ، ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر ، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ ، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به ، وتكذيبه. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، وبما جاء به من عند الله. تركوا الله أن يطيعوه ، ويتبعوا أمره ، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته ، فهم المفارقون طاعة الله ، الخارجون عن الإيمان به وبرسوله[٢]؟ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال سبحانه وتعالى في صفتهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

ومثل ذلك قوله تعالى في صفتهم في سورة «المنافقون»: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

---

(١) ابن كثير: التفسير: جـ ٤: ١٨٠.

(٢) انظر الطبري: تفسير: ١٤: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم قوم تخالف أقوالهم أفعالهم، وتختلف دخيلتهم عن مظاهرهم وهيئاتهم، ففي أقوالهم وهيئاتهم ما يوحي بالخير لحسن بيانهم وفراهتهم، ولكنهم في حقيقتهم أهل فساد، وشر خالين من كل خير. لا يخافون الله ولا ينتصحون ولا يرتدعون، ويأنفون في أنفسهم حتى لتأخذهم العزة بإثمهم فلا يفيئون إلى الله سبحانه، ولا يتركون فسادهم وضلالاتهم. قد تمكن منهم الجبن والهلع، فهم دائماً على وجل أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم[1].

وقد تحدثت آيات سورة «البقرة» وهي من أول ما نزل في شأن المنافقين، تحدثت عن أوصاف مشابهة تؤكد شدة إيغالهم في الشر والفساد، حتى إن مقاييس الخير والشر عندهم لشدة اختلاطها قد انقلبت إلى عكس ما تدل عليه، فيحسبون الفساد الذي يصنعونه ويمكنون له بأقوالهم وأفعالهم، يحسبون ذلك صلاحاً، بينما هو في الواقع من أشد ألوان الفساد والهدم.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ـ١٢] ثم عقب على أوصافهم تلك بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وحسبك من خيبة هؤلاء وخسارهم أن يستبدلوا الخير بالشر، والهدى بالضلال[2]، وهم يحسبون أنفسهم أهل علم وحذق، وأنهم قد ماروا أنفسهم أفضل ما يصلح لها!!

وقد فصل القرآن الكريم في أوصاف المنافقين، حتى لا يغيب شأنهم عن

---

(١) انظر القرطبي: تفسير: ١٨: ١٢٤ ـ ١٢٥، ابن كثير: تفسير: ٤: ٣٦٨، الزمخشري: الكشاف: ٤ ـ ٥٤٠.

(٢) صوابُ العبارة: أن يستبدلوا الشرَّ بالخير، والضلالَ بالهدى. على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. (س).

الناس ، وحتى ينتبه أهل الغفلة منهم فيتوبوا ويرجعوا ، ويحذر المؤمنون الصادقون الوقوع فيما يهلكهم ويرديهم من تلك الأوصاف القبيحة المشينة ، ثم ضرب الله لهم الأمثال في كتابه «زيادة للكشف ، وتتميماً للبيان»[1].

وذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠].

وقد رُوِيَ عن قتادة في معنى المثل الأول الذي ضرب الله للمنافقين ، وهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] قال قتادة: «المعنى: أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له في الدنيا فناكح بها المسلمين ، وغازاهم بها ، ووارثهم بها ، وحقن بها دمه وماله. فلما كان عند الموت سُلِبَها المنافق؛ لأنه لم يكن لها أصل في قلبه ، ولا حقيقة في عمله»[2].

وبالنسبة للمثل الثاني: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] فقد صوّرهم في صورة قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكّون تارة أخرى ، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم «كصيّب» والصيّبُ: المطر نزل من السماء ، «فيه ظلمات» وهي الشكوك والكفر والنفاق «ورعد» وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ ـ ٥٧].

---

(١) العبارة للزمخشري في الكشاف جـ ١: ٧٢.

(٢) ابن كثير: التفسير: ١: ٥٤.

(١) حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[١].

(٢) وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**». وزاد مسلم في رواية له: «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم**». وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: ورواه أبو يعلى من حديث أنس ولفظه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو منافق، وإن صلى وصام وحج واعتمر وقال: إني مسلم..**» فذكر الحديث[٢].

(٣) جابر بن زيد عن بعض أصحاب النبي ﷺ: «إن أصلَ النفاق الذي يُبْنَىٰ عليه النفاقُ: الكذبُ»[٣].

(٤) وفي مراسيل جابر بن زيد عن النبي ﷺ: «**إن لا إله إلا الله كلمةٌ أَلَّفَ اللهُ بها بين قلوب المؤمنين، فمن قالها وأتبعها بالعمل الصالح فهو مؤمن، ومن قالها وأتبعها بالفجور فهو منافق**»[٤].

(٥) جابر بن زيد: إنَّ النبي ﷺ قيل له: إن الناس قد قالوا: «لا إله إلا الله» فَخَفِيَ بها المؤمنُ من المنافق. فقال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بفصل**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: محمد فؤاد عبد الباقي: جـ١: ص ١٢. [وأخرجه الفريابي في «صفة النفاق» رقم ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، والأصبهاني في «صفة النفاق» أيضاً رقم ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠].

(٢) اللؤلؤ والمرجان: ج ١/ ١٢، الترغيب والترهيب ج ٤/ ص ٩ [والفريابي رقم ١، ٣، ٤، ٥، ٦، والأصبهاني رقم ٣٦، ٣٧].

(٣) مسند الربيع بن حبيب ج ٤: ١٩ حديث (٩٤٦).

(٤) المصدر السابق: ج ٤: ١٣ حديث (٩٢٤).

ما بينهما؟ المؤمن إذا أصبح فَهَمُّهُ الله والجنة والنار ، وأما المنافق إذا أصبح فَهَمُّهُ بطنه وفرجه ودنياه»[1].

(٦) الإمام أحمد: حدثنا أبو النظر حدثنا أبو معاوية شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعةٌ: قلبٌ أجردُ فيه مثلُ السراج يُزْهِرُ ، وقلبٌ أَغْلَفُ مربوطٌ على غِلافِهِ ، وقلب منكوسٌ ، وقلب مُصْفَحٌ. فأمَّا القلب الأجرد فقلبُ المؤمن فسراجه فيه نُورُه ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[2].

وفي مسند الإمام أحمد من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المسجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار» وقال يزيد بن مرة: «سخب بالنهار»[3].

(٨) جابر بن زيد عن النبي ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حُسْنُ سَمْتٍ ، وفِقْهٌ في سُنَّة»[4].

(٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي

---

(١) المصدر السابق: ج ٤: ١٣ ـ ١٤ حديث (٩٢٥).

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٣: ١٧ ، وانظر ابن كثير تفسير ١: ٥٦ وقال: وهذا إسناد جيد حسن.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج ٢: ٢٩٣.

(٤) مسند الربيع بن حبيب ج ٤: ٢٨ حديث (٩٨٥).

برجال ، معهم حزم من حطب؛ إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»[1]. وقد تتبعنا الأحاديث التي تناولت حال المنافقين في الصلاة؛ في الفصل الذي عقدناه لهذا الموضوع ، فأغنى عن إعادتها هنا[2].

(١٠) ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ظهرت لهم الصلاة فقبلوها ، وخفيت لهم الزكاة فأكلوها ، أولئك هم المنافقون**»[3].

(١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أظلكم شهركم هذا بمحلوف رسول الله ﷺ ، ما مر بالمسلمين شهر خير لهم منه ، ولا مر بالمنافقين شهر شر لهم منه ، بمحلوف رسول الله ﷺ: إن الله ليكتب أجره ونوافله قبل أن يدخله ، ويكتب إصره وشقاءه قبل أن يدخله ، وذلك أن المؤمن يعد فيه القوت من النفقة للعبادة ، ويعد فيه المنافق اتباع غفلات المؤمنين واتباع عوراتهم ، فغنم يغتنمه المؤمن**». وقال بندار في حديثه: «فهو غنم للمؤمنين يغتنمه الفاجر»[4].

(١٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماذا يستقبلكم وتستقبلون؟**» ثلاث مرات. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ، وحي نزل؟ قال: «**لا**» قال: عدو حضر؟ قال: «**لا**» قال: فماذا؟ قال: «**إن الله يغفر في أول ليلة من شهر رمضان لكل أهل هذه القبلة ، وأشار بيده إليها**». فجعل رجل بين يديه يهز رأسه ويقول: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: «**يا فلان ، ضاق به صدرك؟**» قال: لا ، ولكن ذكرت المنافق. فقال: «**إن المنافقين هم الكافرون ، وليس للكافرين في ذلك شيء**»[5].

(١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**»[6].

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر ما سبق.

(٣) رواه البزار ، المنذري: الترغيب والترهيب ج ١ : ٥٤٣.

(٤) الترغيب والترهيب: ٢ : ٩٧.

(٥) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي. الترغيب والترهيب جـ ٢ : ١٠٥.

(٦) رواه مسلم وأبو داود، والنسائي: جهاد: ٢، وأحمد مسند: جـ ٢ : ٣٧٤.

(١٤) عن عتبة بن عَبْدٍ السلمي رضي الله عنه، وكان من أصحاب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**القتلى ثلاثة: رجلٌ مؤمن جاهد بنفسه له في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل، فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه، لا يَفْضُلُه النبيون إلا بفضل درجة النبوة. ورجل قَرِفَ على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، فتلك مَصْمَصَتُه**[١]، **محت ذنوبه وخطاياه. إن السيف مَحَّاءٌ للخطايا، وأُدْخِلَ من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل، فذلك في النار. إن السيف لا يمحو النفاقَ**»[٢].

(١٥) وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون**»[٣].

(١٦) عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان**»[٤].

(١٧) وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط**»[٥].

---

(١) مَصْمَصَتُه: مُطَهِّرَتُه من الذنوب. (س).

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد والطبري، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، وللبيهقي، الترغيب والترهيب ج ٢: ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٣) رواه الطبراني في الصغير والأوسط من رواية الحارث، وهو الأعور، وقد وقفه ابن حبان وغيره: الترغيب والترهيب ج ١: ١٢٧.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والبزار، ورواته محتج بهم في الصحيح، ورواه أحمد من حديث عمر بن الخطاب. الترغيب والترهيب ج ١: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٥) الترغيب والترهيب ج ١: ١١٥، ومسند الربيع بن حبيب ج ٤: ١٤ حديث (٩٢٧).

(١٨) وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[١].

ومن حديث البراء قال: قال النبي ﷺ: «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**»[٢].

(١٩) وفي مراسيل جابر بن زيد عن النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يَسُودَ كُلَّ أمة منافقوها**»[٣].

(٢٠) وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «**مَثَلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغَنَمَيْنِ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى**»[٤].

(٢١) قتادة قال: وذكر لنا نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن، ناداه الكافر أن: هلم إلي فإني أخشى عليك. وناداه المؤمن أن: هلم إلي فإن عندي وعندي، يحصي له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء فغرقه. وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك[٥].

ومن الآثار الواردة في هذا الباب:

١ ـ عن جابر بن زيد أن رجلاً قال لحذيفة: يا أبا عبد الله، ما النفاق؟ فقال: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٢ كتاب الإيمان ١٠ باب علامة الإيمان حب الأنصار.

(٢) البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار.

(٣) مسند الربيع بن حبيب ج ٤: ١٤ حديث ٩٢٦.

(٤) مسلم: كتاب المنافقين: ١٦، النسائي: كتاب الإيمان: ٣١، الدارمي: المقدمة: ١٣، أحمد بن حنبل: مسند: ٢: ٣٢، ٦٨، ٨٢، ١٤٢، وانظر طرقه أيضاً في ابن كثير: تفسير ج ١: ٥٦٨ ـ ٥٦٩. [شَبَّهَ تردُّدَ المنافق بين الطائفتين المسلمين والكافرين ـ تبعاً لهواه، وقصداً إلى شهواته ـ بتردد الشاة العائرة التي لا تستقرُّ على حالٍ. (س)].

(٥) ابن كثير: التفسير ج ١: ٥٦٩.

(٦) مسند الربيع بن حبيب ٤: ١٥ حديث (٩٣١).

وقد جاء في البخاري: سُئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهم اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنهم كانوا يكتمونه، وهم اليوم يظهرونه[١].

٢ ـ وعن جابر بن زيد أن رجلاً قال لحذيفة: النفاق اليوم أكثر، أم إذ كان على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: سبحان الله! هو اليوم أكثر، هو اليوم أشد[٢].

٣ ـ وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: النفاق نفاقان، نفاق الكذب ونفاق العمل. فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله ﷺ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة[٣].

٤ ـ وقيل لجابر بن زيد: أتخاف النفاق؟ فقال: وكيف لا أخافه وقد خافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

وذلك أن حذيفة بن اليمان قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصادف جنازة فلم يحضرها، فقال عمر: يا حذيفة يموت رجل من المسلمين من أصحاب محمد ﷺ ولا تشهد جنازته؟ فقال حذيفة: يا أمير المؤمنين، أما علمت أن رسول الله ﷺ أسر إلي سراً؟ فقال عمر: أنشدك الله، أمنهم كان؟ قال: اللهم نعم. فقال: أنشدك الله، أمنهم أنا؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ولا أُؤَمِّنُ بها أحداً أبداً...[٥] فذلك خوف عمر رضي الله عنه من النفاق؛ إذ لم يطمئن حتى استحلف حذيفة ليخبره إن كان منهم.

٥ ـ وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة، وتعدلها مرة. ومثل المنافق كالأَرْزَة، لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة**»[٦].

* * *

---

(١) البخاري: الفتن: ٢١.
(٢) مسند الربيع بن حبيب ٤: ١٥ حديث (٩٣٢).
(٣) القرطبي: تفسير: ٨: ٢١٤.
(٤) مسند الربيع بن حبيب ج: ٤: ١٥.
(٥) المصدر السابق ج: ٤: ١٤ حديث (٩٢٩).
(٦) أخرجه الشيخان. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج: ٣: ٢٨٣.

الفصل السابع
أَحكَـام المنَافقيْن

سنحاول في هذا الفصل التعرف على التدابير التي شرعها الإسلام لمعالجة ظاهرة النفاق ، كيف نظر إليها ، وكيف وجه أَتباعه للسلوك تجاه هذه الجماعة؟

لقد تبين لنا مما تقدم أن جماعة المنافقين كانت في حقيقتها تياراً مثبطاً يعمل من الداخل في دأب متصل لتحطيم معنويات المسلمين ، وللإجهاز بشتى الوسائل على بناء الإسلام في مراحل بنائه الأولى ابتداء من الهجرة ، إلى أن قضى الله تعالى لنبيه ﷺ بالفتح والنصر ، ولدينه بالظهور.

لقد وصف أحد الكتاب الغربيين دور المنافقين بأنه دور «المعارضة المسلمة»[1] Muslim opposition . وإذا سلمنا مع الكاتب اعتبار دورهم الذي استعرضناه فيما سبق في ثنايا هذا البحث دور معارضة؛ بمعناها السياسي المعاصر فهذا غير صحيح أيضاً ، إذا قبلنا ذلك ، فإننا لن نقبل لها الوصف الذي اتخذه لها من أنها «معارضة مسلمة». فقد رأينا أن اعتناقهم للإسلام لم يكن إلا (تعوذاً من السيف) ، ورأينا صوراً من استهزائهم بآيات الله ، ومعصيتهم للرسول وعدم الاستجابة له ، ورأينا ألواناً من خلفهم للعهد وسوء ظنهم بالله ، ورأينا تخاذلهم عن الجهاد ، وموالاتهم لأعداء الإسلام من المشركين واليهود. فصفة الإسلام لم تكن لتصدق عليهم بحال.

---

(١) Watt, Montgomery. W. Mohammed at Medina, (Oxford, 1956), p. 180

ثم إن الأمر يختلف اختلافاً كاملاً عندما يكون معارضة لرسول مرسل من عند الله ، يبلغ الوحي عن الله ، ويعمل لإعلاء كلمة الله. فعندما تكون «المعارضة» حرباً لهذا الرسول ولدينه ، فمن الخطأ أن نصفها بوصف «المعارضة الإسلامية».

وقد كان يمكن اعتبارها كذلك ، لو انحصرت في نقاش موقف سياسي معين موقوت ، أو تحديد موقع غزوة أو موعدها ، أو قضية من القضايا التي تهم شؤون المسلمين الدنيوية. ولكننا رأينا فيما تقدم أن معارضتهم تلك ـ وبشهادة الوحي ـ كانت للعقيدة نفسها ، وللدِّين نفسه ، وللنبي نفسه ، وقد كانت تتمثل في صورة عمل متصل لحربه بكل الوسائل؛ التي يمكنهم منها وضعهم الخاص داخل المجتمع الإسلامي.

وهكذا ، فنحن نجد في تسمية حركة المنافقين «بالمعارضة الإسلامية» تجاهلاً حقيقياً لحقيقة النفاق ودور أصحابه ، ولعل ذلك راجع قبل كل شيء إلى عدم تفهم الدارس الغربي المسيحي لحقيقة الإسلام نفسه ، ومعنى النبوة والرسالة والوحي ، وهذا التفهم كان ضرورياً ، وهو أول مقتضيات المعالجة الموضوعية لدراسة الإسلام وما يتصل به لمعرفة تأثيره ، وأبعاد ذلك التأثير في أصحابه ومن حوله.

ودراسة تفتقد هذا الركن العلمي الهام ، لا تستحق المناقشة أساساً. وما كنا لنحفل بمناقشة هذه النقطة التي طرحها هذا الدارس لولا أن اختيار لفظة «المعارضة» قد تجعل بعض المتعجلين يخدع ببريق هذا الاصطلاح السياسي اللامع. فأحببت أن أنبه القارئ المسلم إلى أن الأمر في هذا أعمق من لعب عابر بالألفاظ ، دون مراعاة لمدلولاتها العميقة الدقيقة.

وموضوع «المعارضة في الإسلام» موضوع طريف يحتاج أن يلقى عليه الضوء في دراسة خاصة مفصلة... وقد سجلت السيرة النبوية الكثير من صورها في أكثر من مناسبة ومجال. ويستطيع الدارس أن يلمح نموذجاً لها في موقف عمر بن الخطاب الحائر الملح في صلح الحديبية ، وما كان من

تباطؤ المسلمين حين أمرهم الرسول عليه السلام بنحر الهدي وبالحلق بعد إمضاء الصلح مع المشركين في الحديبية.

ونستطيع أن نلمح صورة أخرى للمعارضة في اعتراض السعدين، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، على ما أراد رسول الله ﷺ أن يمضيه من موادعة غطفان في غزوة الخندق على ثلث ثمار المدينة. فقالا له: يا رسول الله، هذا أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ وعندما قال عليه السلام: «**بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد**». قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا تمرة إلا شراء أو قرىً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. وكان أن أمضى الرسول عليه السلام ما ارتضاه السعدان[1].

فهذه ـ في لمحة عابرة ـ حدود «المعارضة المسلمة»: هي ليست معارضة لشيء أمر به الله سبحانه، فذلك الأمر لا يلقى إلا السمع والطاعة. وليست معارضة لشيء يحبه رسول الله ﷺ، فذلك يصنعونه إرضاء له، وهو من هو من ربه. ولكنها معارضة في حدود الاجتهاد لما يصلح لدنيا المسلمين وشؤونهم التي لم يَفْصِلْ فيها حكم من الله أو من رسوله، فلهم عندئذ أن يقولوا، ويعارضوا، ويشيروا.

فللمعارضة في الإسلام حدودها التي لا تتطاول على مقام الوحي والنبوة، أما حين يكون الأمر استخفافاً بالوحي، وتطاولاً على رسول الله ﷺ وعلى حرمة النبوة، فهي عندئذ خروج عن العقيدة، وقد كانت «معارضة» المنافقين من جنس هذه الأخيرة بلا شك. ولذلك فإن علاجها ودراستها لا ينبغي أن تتناسى هذه الحقيقة؛ لتعود بهم إلى حظيرة الإسلام من الباب الذي خرجوا منه.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق السقا وآخرين: جـ: ٣: ٢٣٤.

ونمضي الآن لنواصل الحديث، حتى نتعرف على أسلوب الإسلام في مواجهة هذه الظاهرة ـ ظاهرة النفاق والمنافقين ـ في إطار حقيقتها وحجمها؛ اللذين بيناهما فيما مضى من هذا البحث.

عالج الإسلام مشكلة النفاق في إطارين اثنين، يخدم كلاهما الآخر ويكمله: الإطار النظري الذي حدد معالمه القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ. ثم الإطار العملي الذي يحقق الصورة العملية لتوجيهات القرآن وإرشاداته.

في الإطار الأول: كشف القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مواصفات المشكلة وأعراضها، وخدم هذا العملُ خَطَّيْنِ اثنين: كشف أولاً دخيلة هؤلاء الناس، فأزاح عنهم قناع الادعاء الزائف الذي يتسترون به بتظاهرهم بالإسلام، بينما يحاربون الإسلام وأهله ويكيدون لهم.

وبصَّر ثانياً أهل الإسلام الصادقين حتى لا يقعوا في محاذير تلك الأوصاف القبيحة. فكان هذا العمل بمثابة التشخيص العلمي للمرض الخطير الخبيث؛ ليتعرف عليه صاحبه في نفسه، فيلتفت إلى علاجه إن كانت له في نفسه حاجة، وليبصره فيه غيره من الأصحاء، فيحذر من أن تناله العدوى، أو أن يأتي هو ما يجر عليه أعراض المرض.

وقد تقدم الكلام في أوصاف المنافقين بما لا مزيد عليه، وذلك جانب من العلاج النظري للمشكلة، ولما كانت سرائر المنافقين استعصت عن أن تنالها أحكام الدنيا التي تهتم بالظاهر وتحسمه، فقد حرص القرآن الكريم على تذكير المنافقين بأنهم يتعاملون مع عالم السر والنجوى، وأنهم إن أفلتوا من عقوبة المسلمين في هذه الدنيا، فأمامهم عقبة لا يجتازها إلا المؤمن الصادق مع ربه ونفسه. وزخر القرآن الكريم بالآيات المتعددة التي أعلنت بالوعيد الشديد للمنافقين، مصورة لهم حقيقة مصيرهم الذي ينتظرهم، إن هم مضوا في غيهم، ومردوا على نفاقهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

فالمنافق في الدرك الأسفل ، وهي «الهاوية» لغلظ كفره ، وكثرة غوائله ، وتمكنه من أذى المؤمنين. وأعلى الدركات جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، قال ابن مسعود: توابيت من حديد مقفلة في النار تقفل عليهم[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] ثم قال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦] وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ

---

(١) القرطبي: تفسير: جـ: ٥: ٤٢٥.

عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

ومن صفة حالهم في الآخرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٥].

أما عن المواقف العملية التي واجه بها المسلمون موجة النفاق، فمما أرشد إليه القرآن في أول الأمر البراءة منهم، ومهاجرتهم، ومقاطعتهم. جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٨٨ ـ ٨٩].

وقد اختلف أهل التفسير في هذه الفئة من المنافقين؛ الذين اختلف المسلمون في أمرهم؛ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ما رواه مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين، فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا. فنزلت: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]. والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أُبي، وأصحابه الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أحد.

القول الثاني: عن ابن عباس: هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة. قال الضحاك: وقالوا: إن ظهر محمد ﷺ فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا فهو أحب إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين: قوم يتولونهم، وقوم يتبرؤون منهم، فقال الله تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨].

والقول الثالث: ذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت في قوم جاؤوا إلى المدينة وأظهروا الإسلام، فأصابهم وباء المدينة وحماها فأركسوا فخرجوا من المدينة.

قال القرطبي معقباً على هذه الأقوال: وهذان القولان يعضدهما سياق آخر الآية من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [النساء: ٨٩]. والأول أصح نقلاً، وهو اختيار البخاري ومسلم والترمذي[١].

ومن التوجيهات القرآنية التي تدل على موقف محدد ما أمر به الله سبحانه وتعالى المسلمين؛ من مقاطعة مجالس المنافقين التي يعلنون فيها كفرهم واستهزاءهم بآيات الله سبحانه وتعالى، حتى يصون آذان المسلمين ومشاعرهم عن ذلك الأذى الخبيث، وليضيق على المنافقين مجال كيدهم وإساءتهم، فيقتصر كيدهم وشرهم ذاك على أنفسهم، ويفقد معناه الذي قصدوه من التأثير على المسلمين، وبلبلة أفكارهم.

جاء في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

قال القرطبي: «فدل بهذا على اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها» قال: «وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي كما بينا، فتجنب أهل البدع والأهواء أولى». قال: «والآية محكمة عند عامة المفسرين. وروى جويبر عن الضحاك قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدِّين، مبتدع إلى يوم القيامة»[٢].

ونقل الجصاص في أحكامه قال: «وقال قائلون: إنما نهى الله عن مجالسة هؤلاء المنافقين، ومن يظهر الكفر والاستهزاء بآيات الله؛ لأن في مجالستهم تأنيساً لهم، ومشاركتهم فيما يجري في مجلسهم»[٣].

فهذا حكم الله سبحانه وتعالى في مواجهة هذا الأسلوب الخبيث، أسلوب الاستهزاء بآيات الله سبحانه وتعالى، والكفر بها.

---

(١) القرطبي، التفسير: ٥: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.
(٢) القرطبي، التفسير: ٥: ٤١٨.
(٣) الجصاص: أحكام القرآن: ٢: ٢٨٩.

وهذا أمر قد شاع بين الناس اليوم ، وكثر الخوض فيه ، بعضهم يفعله عن خبث وكيد وسوء نية ، وبعض يلتمسون به الظرف والفكاهة ، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، فواجب المسلم امتثالاً لحكم الله سبحانه أن ينهى عن مثل هذا المنكر الشنيع ، أما إذا عجز عن النهي فلا أقل من أن يهجر أمثال تلك المجالس ، وأن يقاطع أمثال تلك الأحاديث ، وأن يلتزم أوامر الله فيغلبها على ما يحب البعض أن يحمله على آداب المجاملة ، وأصول الحديث المتحضر!! وأمر الله سبحانه وتعالى أولى أن يتبع : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠]. وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فهذا الذي أمر الله به من ترك مجالس المنافقين عند خوضهم في آيات الله واستهزائهم بها داخل في إطار الأمر الأول بمهاجرتهم ، والبراءة منهم ، وهو مظهر من مظاهر تلك البراءة ، وما تقتضيه من مقاطعتهم ، وبغضهم ، والاكفهرار في وجوههم.

إلى جانب ما تقدم ، فقد أمر الله نبيه عليه السلام بموعظة المنافقين ، وبالإعراض عنهم. قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٩٥]. وأمر الله نبيه عليه السلام بعدم التعرض لهم بالأذى ، وأن يتوكل عليه سبحانه ، ففي ذلك ما يصرف عنه شرورهم وكيدهم ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

كل هذا مع إفساح مجال التوبة أمام المنافقين ، ودعوتهم إلى الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليستغفر الله لهم ، وعدم إيئاسهم من رحمة الله سبحانه إن هم تابوا وأصلحوا.

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٧].

قال القرطبي: «ومن شرط التائب من النفاق أن يصلح في قوله وفعله، ويجعل الله ملجأ ومعاذاً كما نصت عليه هذه الآية، وإلا فليس بتائب»(١). وروى البخاري عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال: لقد نزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود: سبحان الله! إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥] فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد.

وعن جابر بن زيد عن حذيفة قال: «لمنافقوكم اليوم أشد من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. فقيل له: لم ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: إن أولئك كان ذنبهم يومئذ مغفوراً، وحسناتهم مقبولة»(٢).

ومع تتابع الأحداث في السيرة، وتمادي أهل النفاق في نفاقهم وثباتهم عليه، تدرج الأمر معهم إلى اتخاذ تدابير عملية، أدت إلى حرمان من تخلف منهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك وعدم المشاركة في الجهاد من الخروج إلى الجهاد مرة أخرى، بسبب قعودهم وتخلفهم. وذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

---

(١) القرطبي: التفسير: ٥: ٤٢٦.

(٢) مسند الربيع بن حبيب جـ ٤: ١٥ حديث (٩٣٣).

وذلك أن المنافقين أرادوا أن يخضعوا معنى الجهاد لإعلاء كلمة الله بمفهوم الغارة قصد المغنم السهل اليسير، فكانوا إذا سهل الأمر، وظهر لهم فيه إمكان النصر وقرب الموضع نشطوا له، وإن كان غير ذلك تخلفوا وقعدوا. فجاء هذا الحكم ليحسم هذا الخلط في تصورهم لمعنى الجهاد الذي شرعه الله أولاً وقبل كل شيء؛ لإعلاء كلمة الله، وتمحيص أهل الإيمان، وليس للمغنم الدنيوي القريب.

وصحب هذا حرمانهم من استغفار الرسول لهم، وإيئاسهم من ذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠].

وأمر الله نبيه بعدم الصلاة على موتاهم، أو الوقوف على قبورهم، والدعاء لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ...﴾ [التوبة: ٨٤].

وانتهى الأمر أخيراً إلى التهديد بالنفي، والقتل إن هم تمادوا على ضلالهم وفسادهم، وذلك ما نص عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١].

على أن الأمر هنا لم يتجاوز التهديد، ولم يتخذ الرسول عليه السلام معهم مواقف تحمل طابع العنف والشدة. وما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهاد المنافقين، كما يقول ابن القيم: «إنما هو تبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام»[1]. وقد لخص ابن القيم سيرة الرسول ﷺ في المنافقين في قوله: «وأما سيرته في المنافقين فإنه أُمِرَ أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأُمِرَ أن يعرض عنهم،

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد: ٢: ٤٠.

ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونُهِيَ أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخيراً أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[1].

فسيرة رسول الله عليه السلام في المنافقين كانت على هذا النهج الذي ذكره ابن القيم. وعلى كثرة المصاعب والمتاعب التي سببها المنافقون في مسيرة الدولة الإسلامية، وعلى كثرة شغبهم، وما نال المسلمين من كيدهم وسوء فعلهم، فإن الرسول عليه السلام قد سلك معهم مسلك المداراة والملاينة. وأعنف مظاهر الضرب على أيديهم ما ورد من أمره عليه السلام من تحريق مسجد الضرار[2]، وإحراق بيت سويلم اليهودي الذي كان مقر لقاءاتهم مع نفر من اليهود[3]، وإخراج عدد من المنافقين من مسجده ﷺ[4].

وقد تكررت من المنافقين كثير من المواقف التي حركت عليهم غضب المسلمين، ورغبوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا إليه أن يأذن لهم في قتلهم، فلم يسمح به، ولم يأذن لهم فيه، وقد ناقش العلماء مسألة إمساك النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم، وأورد القرطبي أربعة أقوال في ذلك، نورد نصها هنا[5].

«**القول الأول:** قال بعض العلماء: إنما لم يقتلهم؛ لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه. وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام. قال ابن العربي: وهذا منتقض، فقد قتل بالمجدر بن زياد الحارث بن سويد بن الصامت؛ لأن المجدر قتل أباه سويداً يوم بعاث، فأسلم الحارث، وأغفله يوم أحد فقتله، فأخبر به جبريل النبي ﷺ فقتله به؛ لأن قتله كان غيلة. وقتل الغيلة حد من حدود الله.

---

(١) المصدر السابق: ٢ ـ ٨٢.
(٢) انظر ما سبق.
(٣) انظر ما سبق.
(٤) انظر ما سبق.
(٥) القرطبي: التفسير: ج: ١: ١٩٨ ـ ١٩٩.

قلت: وهذه غفلة من هذا الإمام؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي ﷺ وانقطاع الوحي، وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين بوحي، فلا يحتج بها، أو منسوخة بالإجماع، والله أعلم.

القول الثاني: قال أصحاب الشافعي: إنما لم يقتلهم لأن الزنديق ـ وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان ـ يستتاب، ولا يقتل. قال ابن العربي: وهذا وهم، فإن النبي ﷺ لم يستتبهم، ولا نقل ذلك أحد. ولا يقول أحد أن استتابة الزنديق واجبة، وقد كان النبي ﷺ معرضاً عنهم مع علمه بهم. فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال: إن استتابة الزنديق جائزة، قال قولاً لم يصح لأحد.

القول الثالث: إنما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه؛ لئلا تنفر عنه، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لعمر: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**» أخرجه البخاري ومسلم.

وقد كان يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفاً. وهذا هو قول علمائنا وغيرهم. قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله ﷺ عن المنافقين. نص على هذا محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠] إلى قوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١] قال قتادة: معناه إذا هم أعلنوا النفاق.

قال مالك رحمه الله: النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة، وهو أحد قولي الشافعي. قال مالك: وإنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه؛ إذا لم يشهد على المنافقين. قال القاضي إسماعيل: لم يشهد على عبد الله بن أُبي إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل. وقال الشافعي رحمه الله محتجاً للقول الآخر: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة

فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه. وبه قال أصحاب الرأي وأحمد والطبري وغيرهم.

قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجُبُّ ما قبله. وقال الطبري: جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم الظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله. وقد كذب الله ظاهرهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. قال ابن عطية: ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم فيها، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عَيَّنَ أحداً لما جَبَّ كذبه شيئاً. قلت: هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي ﷺ كان يعلمهم أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم، بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له: يا حذيفة هل أنا منهم؟ فيقول: لا.

القول الرابع: وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم، فلم يكن في تبقيتهم ضرر. وليس كذلك اليوم؛ لأننا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا». انتهى كلام القرطبي.

وذلك الخلاف الذي رأيناه في توجيه موقف الرسول عليه السلام من المنافقين، وتفسير عدم قتله لهم، انعكس كذلك في موقف الأمة في فهمها لظاهرة النفاق، وتحديد إطارها. ومدار هذا الخلاف على ثلاثة أقوال[1]:

الأول: وهو قول جُلِّ الأمة: إن المنافقين نافقوا من جهة الاعتقاد؛ لأنهم

---

(١) الوارجلاني: الدليل والبرهان: مخطوطة المتحف البريطاني: (٤٩ وجه).

اعتقدوا خلاف ما أظهروا، ولم يقولوا بالنفاق في الأفعال. وهو قول السنية والمعتزلة والروافض من الشيعة.

الثاني: إن النفاق في الأفعال دون الاعتقادات. وهو قول الإباضية.

الثالث: إن المنافقين هم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ في فعل الكبير.

ولا نريد أن نطيل البحث باستعراض آراء هذه الفرق كلها، واستعراض حججهم، وقد نعود لبحث هذا الموضوع في فصل مستقل في غير هذا البحث، ولكننا نورد هنا فصلاً عقده الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني في هذا الموضوع، الذي نحن بصدده لخص فيه الخلاف في هذه المسألة، وناقشه نقاشاً مستفيضاً.

قال الوارجلاني رحمه الله عند كلامه على النفاق في كتابه النفيس: «العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف»[1]: «أصل النفاق في كلام العرب مأخوذ من نافقاء اليربوع. وهو اسم شرعي، وذلك أن اليربوع يتخذ أبواباً إلى جحره منها: القاصعاء، والرهطاء، والداماء، والنافقاء[2] فاستعمل النافقاء باباً مستخفياً يخرج منه عند الضرورة إذا خاف فأخفاه عن العيون.

وهو اسم شرعي فسره أهل العلم فقالوا: إنه اختلاف السريرة والعلانية، واختلاف القول والعمل، واختلاف المدخل والمخرج. وهذه المقالة تروى عن الحسن البصري، ومعناها عن حذيفة بن اليمان، وهو قول جل الصحابة، وقد ذكر الله عز وجل المنافقين في آي كثيرة من كتابه، فاختلفت الناس فيهم، فقال بعضهم: مشركون خالف قولهم اعتقادهم، وقال

---

(١) الكتاب مخطوط، وقد وفقني الله سبحانه إلى تحقيقه وتهيئته للطبع، والنص هنا منقول من مخطوطة نسختي المحققة ورقات =(٣٥٠ ظهر ـ ٣٥٥و).

(٢) هذه كلها أسماء لأجحرة اليربوع، فالرهطاء والرهطة هي التي يخرج منها التراب، والقاصعاء جحر له يدخله، والدَّامَّاء جحر اليربوع حال تغطيته وتسويته، وتراب يخرجه فيسوي به بابه، ودَمَّ اليربوعُ جحرَه: غطاه وسواه. قاموس: (قصع)، (رهط)، (دم).

بعضهم: خالف فعلهم قولهم. قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٨٨]. وقال: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: ١٣] وقال: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥] والآي التي في سورة براءة جلها إنما نزلت في المنافقين والمنافقات أجمعين.

وإنا ذكرنا مبدأ أمرهم، ومنهم تتعرف الحقيقة فيهم، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فيمن خلفوا بمكة ممن آمن وصدق برسول الله عليه السلام، فقال بعضهم: هم على حقيقة ما أنتم عليه، وهم إخواننا، وإنما ثقل عليهم أمر الهجرة والخروج من الوطن، فهم مسلمون مؤمنون. وقال بعضهم: بل هم مشركون لتخلفهم عن الهجرة، ولقعودهم بين ظهراني قوم مشركين.

فأنزل الله تعالى معاتبة المؤمنين في اختلافهم، و رد على الفريقين وسماهم بخلاف ما سموهم به؛ إذ سماهم البعض «مؤمنين» والبعض «مشركين»، وقال عز وجل: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم . . . ﴾ [النساء: ٨٨] فأخبر أنهم ليسوا «بمؤمنين»، ولا «بمشركين»، ولكنهم «منافقون» فأخبر أنه أركسهم رداً على من سماهم «مؤمنين»، وسماهم الله منافقين رداً على من سماهم «مشركين»، ثم قال عتاباً للمؤمنين: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨] فوقع العتاب هاهنا على من سماهم «مؤمنين»، ثم قال: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩] وإنما مودتهم أن يترك المؤمنون الهجرة كما تركوها هم فيكفروا كما كفروا.

ثم قال: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ [النساء: ٨٩] وقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار حتى يهاجروا في سبيل الله. ثم قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ

فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩] فصح أنهم قبل التولي لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين إلا ترك الهجرة. فإن وقع التولي وهو الارتداد كان لهم حكم آخر وهو القتل.

فمن أثبت النفاق في الأفعال لمخالفتها الأقوال، فهو أقرب إلى الحجة؛ لأنهم استدلوا بظاهر هذه الآية وقضوا بأن النفاق في الأفعال لما رأوا من ثبوتهم على المعاصي، إذا خلوا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧] واستدل الآخرون بتكذيب الله إياهم: ﴿... قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فهذه الآية مشتركة بين الفريقين؛ لأن الفريقين قد اتفقا على أن المنافقين يشهدون أن محمداً رسول الله ﷺ، وأنا ننتصر لك في مغيبك ونشهد عند اليهود إنك لرسول الله. فشهد الله أن محمداً رسوله وأنهم كذبوا. فاختلف الفريقان، فقال من شركهم: إنما وقع التكذيب على الشهادة ونحن نشهد لهم بالشهادة، وإنما وقع التكذيب ذماً لهم وتوبيخاً. ألا ترى أنه لو وقع التكذيب على قلوبهم لقال: والله يشهد أنهم كاذبون. فلما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقعت عليهم الشهادة بالكذب في شيء آخر لكسر إنّ. واستدلوا أيضاً بقول الله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] إلى قوله ﴿... بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧] فلما أخبر عن الوعد باللسان وعاقب، وعقب بالنفاق في القلب، علمنا إنما سلبهم الإيمان الذي يكون في القلب، عقوبة لهم، ولن يستقيم الإيمان والنفاق في قلب واحد.

و(قال) الآخرون: قد يصبح النفاق في القلب ويقاوم؛ لأن هذا الإيمان دخل في قلوبهم إلى المؤمنين. وليس لمن أثبت لهم الشرك آية في القرآن أعظم من هذه والتي قبلها: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] وباقي الآيات عليهم لا لهم. والذين قضوا بالضمير تعسفوا؛ لأنهم لا يتوصلون إلى

الاعتقادات إلا بنصوص الشارع. والذين قضوا بهذا قد أبعدوا عن أنفسهم أسباب الشر، لكنهم هدموا قاعدة الخوف، وسهلوا طريق الجنة. والذين قالوا: إنه في الأفعال عظموا أسباب المخاف فهم أحزم.

والذي عندي أن النفاق ما قدمناه أولاً أنه في الأفعال، ولا يستحيل صرفه في الوجهين جميعاً. وليس لنا أن نتحكم على الشارع في الأسامي، وإنما الشأن في الأحكام.

وهؤلاء الذين حكموا في الأفعال على المنافق لم يختلفوا مع هؤلاء الذين أثبتوه في الاعتقادات، إلا في أشياء نزرة. فمن سماه مؤمناً أجرى عليه الحدود كما أجراها عليه من سماه منافقاً، وقد اتفقا ولم يتفقا.

أما الذي قال إنه مؤمن من أهل الجنة، والقائل بأنه منافق من أهل النار، ها هنا تقع الديانات، ويقع التفاوت في الاعتقادات. وقد قال عليه السلام: «**علامة المنافق إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف**»[1]. والحديث الصحيح الذي أخرجه الصحاح أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من كن فيه أو واحدة فهو منافق حقاً، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. من إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[2].

فهذا النص في موضع النزاع، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ، وأما اليوم فقد كفروا كفراً مبيناً، فهذا الفصل بين المذهبين؛ حيث أثبت حذيفة الكفر في الأفعال فليقولوا في النفاق ما شاؤوا. وإنما عزاهم إلى الكفر من أجل تبجحهم به والمجاهرة به، وإنما اختلفوا في الكبير هل هو نفاق ظاهر، أو باطن، أم باطن لا غير؟ وغرضنا أن يكون الكبير كفراً.

فمن منعه أن يكون نفاقاً لأهل الظهور، فقد أتى بأكثر من غرضنا ومرادنا

---

(١) انظر ما سبق.

(٢) انظر ما سبق.

كما قال حذيفة. وإنما هربوا أن يجعلوا الكبير كفراً ونفاقاً وجنوحاً وميلاً إلى الراحة. فمن قضى بالوعيد نهب الطمع في البيد». انتهى كلام الوارجلاني.

وخلاصة البحث في هذا الموضوع أن الخلاف بين الأمة إنما جاء في التسمية وحسب، فمن حكم بالنفاق في العقيدة دون العمل، قضى أن أحكام الضمائر غيب لا يطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن من قصر النفاق على الاعتقاد قصره في الزمن على عهد النبوة والوحي، وانقطع عنده أمر النفاق مع انقطاع الوحي؛ إذ لا سبيل إلى معرفتهم.

وهكذا منع هذا الفريق اسم النفاق عن أهل التوحيد الذين يظهرون الإسلام، وإن ظهرت منهم علامات النفاق، وما ظهر منهم من أفعال الكبائر حملوها على الفسوق والعصيان، ومنعوا عنهم اسم النفاق، ومن حكم بالنفاق في العمل فقد بناه على أن مواقعة الكبائر لا تكون إلا مع فساد العقيدة ووهنها، وحملوا الكبائر كلها على النفاق، ولم يتحرجوا في تسمية من ظهرت عليه علامات النفاق بهذا الاسم. قال القرطبي: «ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة»[1].

والخلاف ـ كما ترى ـ حول التسمية لهذا الصنف من المسلمين الذين لم يلتزموا أوامر دينهم، ومتطلبات عقيدتهم، وخالفوها إلى المعاصي والكبائر، ولا أثر لهذا الخلاف في تسميتهم على أحكامهم الدنيوية، فإن ذلك لا يرفع عنهم حداً من حدود الله وجب عليهم، مع اتفاق الجميع ـ من سماهم بالنفاق ومن لم يسمهم به ـ على وجوب النكير على أصحاب المعاصي والكبائر، وهجرهم، والتغليظ عليهم وجهادهم.

* * *

(١) القرطبي: التفسير: ج: ٨: ٢١٤.

الخاتمة

وبعد:

فلقد اهتمت هذه الفصول السابقة بدراسة ظاهرة النفاق والمنافقين في إطار الموازين الإسلامية، وفي سياق تاريخي محدد بمسار البعثة النبوية، منذ الهجرة حتى تحقق الفتح وظهور الإسلام. ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة أن النفاق ظاهرة بشرية عامة توجد عندما تتوفر لها الظروف التي تنشأ فيها، بعضها ذاتي داخلي، وبعضها يفرضه الواقع الخارجي.

فما من مجتمع كبير أو صغير، وما من حركة سياسية أو دينية، إلا وقد خبرت ألواناً من أخلاق النفاق، ونماذج من المنافقين، فالظاهرة في هذا الإطار ظاهرة بشرية إنسانية تنشأ في إطار الدوافع الذاتية، أو الخارجية التي تعمل على صنعها، والتمكين لها.

قد يعجز شخص ما عن الالتزام بمتطلبات طبقته، أو أسرته، أو جماعته، ويستشعر مع ذلك ضرورة الارتباط بها، فيتظاهر لها بقدر الإمكان بمظاهر ذلك الالتزام. وحقيقته على غير ذلك. فهذا نوع من النفاق.

وقد يجد شخص ما، لسبب أو لآخر، نفسه على رأس جماعة أو هيئة أو دولة، تفرض تقاليدها وأعرافها أنماطاً من الفكر والسلوك لا يعتقده هو أو لا يستطيع الالتزام به، فيتظاهر بكل ما من شأنه أن يظهره بمظهر الشخص الملتزم بالفكر والسلوك المطلوب منه ظاهراً، بينما يعيش في حقيقة أمره غير ذلك... وهذا لون من ألوان النفاق.

وقد يعرف عن حاكم بعينه البطش والاستبداد، فينشأ الناس على تمجيده

وتزيين كل أعماله ، وهم يبطنون غير ذلك. وكذلك الحال في رب الأسرة الغليظ الجافي الذي يضطر أهله ، وأبناؤه؛ لنفاقه ، بإعطائه المظهر الذي يريده؛ بينما يعيشون في حقيقة أمرهم على غير ما يعطونه من مظاهرهم. وهذا لون آخر من النفاق.

وهكذا وفي كل هذه الصور والمظاهر ومثيلاتها ، ينشأ النفاق في حقيقته عن ضعف ـ إما ذاتي ، أو بسبب ظروف خارجية غالبة ـ يمنع صاحبه عن إعلان حقيقته ، خيراً كانت أم شراً ، فيحاول أن يكيف نفسه مع واقعه الغالب عليه؛ متجنباً الصِّدام الظاهر المباشر معه ، ملتزماً حقيقته الخاصة حتى تسنح له الفرصة لتجاوز واقعه ، والتغلب عليه.

وكأي ظاهرة بشرية ، فإن النفاق من ثم يخضع لمقاييس الأخلاق البشرية ومظاهرها ، فيكونُ فردياً وجماعياً ، خاصاً وعاماً ، ضعيفاً وقوياً.

ولم يغفل البشر عن معرفة هذه الحقيقة ، ولذلك فإن كل التجمعات والجماعات الإنسانية تعرف ظاهرة النفاق ، وتواجهها بوسائلها المختلفة. وكل تجمع وكل حركة وكل فكرة ، وكل بناء اجتماعي أو سياسي لا يدخر وسعه في كشف تلك العناصر المنافقة؛ التي تندس في بنائه ، وتكيد له ، وتعمل على هدمه.

ونحن حين نقرر هذه الحقيقة العامة نريد أن نعقب عليها بإبراز حقيقة أهم هي: أن كل الأديان والأفكار والأنظمة والنشاطات البشرية والتصورات المرتبطة بها ـ عدا الإسلام ـ تمثل ركاماً جاهلياً يقف في صف الباطل. بينما يقف الإسلام وحده ، وهو دين الله الحق ، وفي الخط المواجه يمثل الهدى الذي أرسله الله إلى البشر ، وختم به رسالاته لهم.

وفي هذا الإطار وفي نطاق هذا المفهوم ، فإن ظاهرة النفاق ـ عدا كونها ظاهرة مرضية ـ يختلف شأنها خارج الإطار الإسلامي ، فالمنافق الذي ينافق أنظمة وأفكاراً جاهلية يستوي في نظر الإسلام هو والمخلص لتلك الأنظمة والأفكار. وينسحب عليهم جميعاً ـ صادقهم ومنافقهم على السواء ـ وصف

الكفر، أو الشرك، أو الإلحاد، حسب مقتضيات التصور الإسلامي، ومصطلحاته الشرعية.

والكلمة تفقد معناها في الحسِّ الإسلامي حين تستعمل خارج إطارها الذي أراده الإسلام لها. وقد يجيء وقت يضعف فيه الإسلام، ويلتبس فيه الأمر على الناس، حتى يتجرأ أعداؤه على إطلاق اسم النفاق على المسلمين الخلص؛ لأنهم لم يتركوا إسلامهم لشعارات وأفكار وأنظمة غربيّة مستوردة لا تمت للإسلام بصلة!! ولكن ذلك لا يغير من الحق، والعبرة في هذا كله هو ما يقرره الإسلام في أصوله الصحيحة السليمة دون تحريف أو تزييف. والأمر بعد ذلك كله لله سبحانه يحكم بين عباده ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٥].

والحمد لله تعالى على ما أعان ووفق، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن نَبْوَةِ الفكرة، وزلة القلم، وأنا أبرأ إليه من كل حول وقوة، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه. ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

فهرس المحتويات

* **كلمة بقلم المراجع** ٦
* **تمهيد** ١٠
النماذج البشرية في موازين العقيدة الإسلامية ١٠
الصراع بين الحق والباطل ، ومنهج الإصلاح عند الأنبياء ١١
أصناف الناس بين مؤمن ومشرك ومنافق ١٢
ضررُ صنف المنافقين على الأمّة الإسلامية ١٣
الفجوة بين الأنظمة الإسلامية وواقع المجتمعات المسلمة ١٤
الحيّز الكبير الذي شغلته قضية المنافقين في القرآن والسُّنة ١٦
* **الفصل الأول**: كلمةٌ في المشكلة والمنهج ١٧
ما الحاجة إلى دراسة قضية النفاق والمنافقين؟ ١٧
الاحتكام إلى الصِّيَغ الشرعية الدينية في واقع الناس ١٧
الظواهر المترتبة على جهل الناس بحقائق الاصطلاحات الشرعية
ومدلولاتها ١٧
مؤثرات الخلاف المذهبي في دراسة هذه القضية ١٩
نظرة إلى الخلافات المذهبية في مجالات الأحكام الفقهية ١٩
مسائل مهمة تؤخذ في الاعتبار من أجل نبذ الخلاف والتعصب ٢٢
نظرة إلى الخلافات المذهبية في مجالات العقيدة وأصول الدين ٢٤
تحديد محور الدراسة ٢٤
* **الفصل الثاني**: أصل الاصطلاح ٢٦
الأصل اللغوي للنفاق ٢٦

محاولة بعض الباحثين إعادة اللفظ إلى لغاتٍ غير العربية ٢٦
المدلول الشرعي للنفاق ٢٧
الإشارة إلى أن مصطلح النفاق استعمالٌ إسلاميٌّ مبتكر لم يُسْبَقْ تداوله ٢٨
تاريخ ظهور مصطلح النفاق ٢٩
أول نص قرآني صرّح بلفظ النفاق ٢٩
أول نص من السنة النبوية صرّح بلفظ النفاق ٣٠
الملامح الأوّلية التي رسمها القرآن لفئة المنافقين ٣١
* **الفصل الثالث**: ابتداء ظاهرة النفاق في المدينة ٣٣
مراكز القوى في المدينة ٣٣
رجحان كفّة الرسول ﷺ وأصحابه في ميزان القوى بالمدينة ٣٥
من نتائج التغير الطارئ في ميزان القوى بالمدينة بعد الهجرة ٣٦
موقف عبد الله بن أُبيّ بن سلول من دعوة الرسول ﷺ ٣٦
موقف أبي عامر الراهب من دعوة الرسول ﷺ ٣٧
مظاهر العداء المستتر الذي سلكه عبد الله بن أبي بن سلول ٣٧
تحليل الدوافع الحقيقة وراء تصرفات عبد الله بن أبي بن سلول ٤١
* **الفصل الرابع**: المظاهر العملية لتحركات المنافقين في المدينة ٤٣
تنوّع تحرُّكات المنافقين في المجتمع الإسلامي الأوّل بالمدينة ٤٣
إرجاف المنافقين بالرسول ﷺ بعد منصرفه من غزوة بدر منتصراً ... ٤٣
موقف المنافقين عند محاصرة المسلمين ليهود بني قينقاع ٤٤
موقف المنافقين في غزوة أحد وبعدها ٤٥
تآمر المنافقين مع يهود بني النضير ٤٧
موقف المنافقين من حادثة الرجيع ٤٩
موقف المنافقين في غزوة الخندق سنة ٥ هـ ٥٠
موقف المنافقين في غزوة بني المصطلق سنة ٦ هـ ٥١
استهداف المنافقين لشخص الرسول ﷺ وأهله في قصة زيد بن حارثة ٥٦
استهداف المنافقين لشخص الرسول ﷺ وأهله في حادثة الإفك ٥٧
موقف المنافقين في غزوة الحديبية ٦٢
موقف المنافقين في غزوة خيبر ٦٢

موقف المنافقين في غزوة حُنَيْن ٦٣
موقف المنافقين في غزوة تبوك ٦٤
تآمر المنافقين على الرسول ﷺ لاغتياله ٦٨
بناء المنافقين مسجد الضرار ٧١
استعراض أسماء عدد من المنافقين ومواقفهم ٧٣
ذكر عدد من أحبار اليهود أسلموا نفاقاً ٧٧
موقف المناقفين من معجزات الرسول ﷺ ٧٨
نماذج من سياسة الرسول ﷺ في مُداراة المنافقين والإعراض عنهم . ٧٩
نماذج من مظاهر العقوبة التي اتخذها الرسول ﷺ مع المنافقين ٨٠
* **الفصل الخامس**: ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية ٨٣
معالجة القرآن الكريم لظاهرة النفاق في آيات عديدة ٨٣
ـ **أولاً**: النفاق في العقيدة ٨٧
تصور المنافقين لمفهوم الألوهية ، وجهلهم بالله سبحانه وتعالى ٩٢
موقف المنافقين من الرسول ﷺ وتمرّدهم عن طاعته ٩٥
موقف المنافقين من آيات الله وما يتنزل من الوحي ٩٩
ـ **ثانياً**: النفاق في الصلاة ١٠٣
ـ **ثالثاً**: موقف المنافقين من الصدقة والنفقات ١١٢
ـ **رابعاً**: موقف المنافقين من الجهاد ١٢٠
* **الفصل السادس**: الملامح العامة لظاهرة النفاق ١٣٠
عناية القرآن بكشف ملامح ظاهرة النفاق ١٣٤
الأحاديث الواردة في توضيح ملامح ظاهرة النفاق ١٣٨
الآثار الواردة في توضيح ملامح ظاهرة النفاق ١٤٣
* **الفصل السابع**: أحكام المنافقين ١٤٥
هل يمثّل المنافقون دور «المعارضة المسلمة»؟ ١٤٥
أسلوب الإسلام في معالجة مشكلة النفاق في الإطار النظري ١٤٨
أسلوب الإسلام في معالجة مشكلة النفاق في الإطار العملي ١٥٠
* **الخاتمة** ١٦٣
فهرس المحتويات ١٦٦

* * *



(ظاهرة النِّفاق في إطار الموازين الإسلامية) كتابٌ في الفكر الإسلامي، ألَّفَهُ الدكتور الليبيّ عمرو خليفة النامي.

قصد منه تسليطَ الضوء على ظاهرة النفاق كما تُحَدِّدُها الموازين الإسلامية، وكما كَشَفَتْها الأحداثُ في سيرة الرسول (ﷺ). ووَضَعَ كتابه هذا في سبعة فُصُول، أوَّلُها وثانيها حَدَّد فيهما المشكلة والمنهج، وبيَّنَ أصل الاصطلاح، واستعرض في الثالث والرابع ظاهرة النفاق نشأةً وتطوراً، وتناول في الخامس ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية، مُفَصِّلاً فيه موقف المنافقين من العقيدة والصلاة والنفقة والصدقات والجهاد، وجاء الفصلُ السادس خلاصةً لِمَا تَقَدَّم وإيجازاً وجمعاً للملامح العامة لِهَذه الظاهرة، بينما أفرد الفصل الأخير للحديث عن أحكام المنافقين. واشتمل الكتاب على استقصاء لآيات النفاق، وأحاديثه، ومواقف المنافقين في السِّيرة النبوية، مع تَحْليلٍ موضُوعيٍّ لَهَا.

المؤلِّف في سُطُور

عَمْرو خليفة النَّامي (و: 1358هـ ، 1939م) باحثٌ وأديبٌ إباضيّ، ومفكِّر إسلاميّ، مِنْ نَالُوت في ليبيا، تَخَرَّج في كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية، ودَرَسَ في مصر، ثم نال الدكتوراه من جامعة كمبردج بالمملكة المتحدة؛ في الفَلْسَفَة والدِّراسات العربيَّة والإسْلاميَّة. ساهَمَ في الحركة التعليمية في بلاده، وَدرَّس في أمريكا واليابان. مِنْ آثارِه العلمية: "STUDIES IN IBADHISM" أطروحة دكتوراه بالإنجليزية (مط) تُرْجِمَتْ مؤخَّراً بعنوان «دِرَاسَاتٌ عن الإباضيَّة»، و«ظاهرة النِّفَاق في إطار الموازين الإسلامية» (مط)، ومقالاتٌ وأشعارٌ متفرِّقة. كما حَقَّقَ أكثَرَ من عشرة كُتُب؛ أهَمُّها: «أجوبة ابن خلفون» (مط) و«العدل والإنصاف» للوارجلاني (مر) وشَارَكَ في إعداد بعض الموسُوعات العِلْمِيَّة في ليبيا.

مكتبة مسقط
مسقط ـ القاهرة

مكتبة مسقط ـ مسقط
فاكس: 00968-24537092
نقال: 00968-99340835
E-mail: mctbooks@hotmail.com

مكتبة مسقط ـ القاهرة
هاتف: 0020115010494
E-mail: mctbookscairo@hotmail.com

OR 2.000